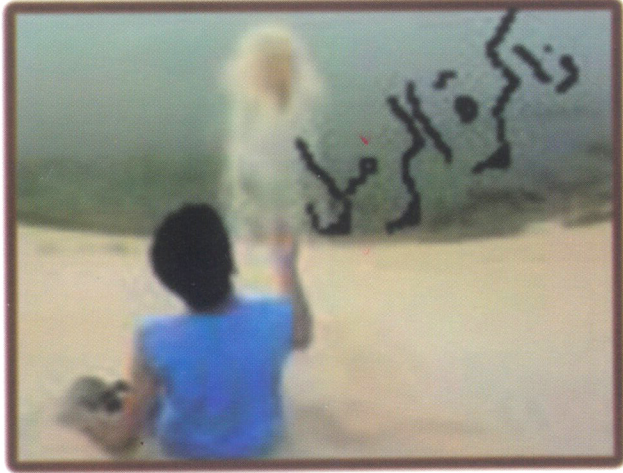


ذاكرة الرمل



روايت
محمد ولد محمد سالم



محمد ولد محمد سالم

ذاكرة الرمل

2008

ذاكرة الرمل نص جديد يضاف إلى رصيد الإنتاج السردي لمحمد ولد محمد سالم. وهي بذلك تعزز السرد الروائي الموريتاني الذي لا يمكن إلا أن يكون مع الزمان إضافة نوعية إلى السرد العربي الحديث، مادة حكاية هذه الرواية أو القصة فيها يمكن أن تقع في أي مكان وفي أي زمان : أم العيد يتم التعرض لأرضها غصبا. لكنها لم تستسلم، فتأخذ حقها من غاصبتها إياه، فتودعها المستشفى، ويكون مآلها السجن.

تسعى الرواية برهافة وحس سردي بديع إبراز آثار هذا الحدث على القرية، مجسدة بذلك بعض مشاكلها واصطفافات شخصياتها، مقدمة لنا بذلك صورة دقيقة وصادقة وكثيفة أيضا عن خصوصيات المجتمع الموريتاني.

سعيد يقطين



— الكاتب

محمد ولد محمد سالم

1969 واد الناقة — موريتانيا

شهادة الكفاءة للتدريس

في التعليم الثانوي.

— الإنتاج القصصي :

• أشياء من عالم قديم

(مطبوع)

• دروب عبد البركة

(تحت الطبع)

• مذهب النظرات

(تحت الطبع)

ذاكرة الرمل

رواية:

محمد ولد محمد سالم



- الكتاب : ذاكرة الرمل - رواية -
المؤلف : محمد ولد محمد سالم
الناشر : منشورات دار الأمان للطباعة والنشر والتوزيع
العنوان : 4، زنقة المامونية - الرباط
الهاتف : 037 72 32 76 - الفاكس : 037 20 00 55
البريد الإلكتروني : *E-mail : Darelamane@menara.ma*
الحقوق : جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
الطبعة الأولى : 1429 هـ - 2008 م
الطبع : مطبعة الأمنية - الرباط
الإيداع القانوني : 2008/0745
ردمك : 9981-941-91-1

ديوان الليل

... سبحان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله... لعل صلاة
الصبح قد أقيمت ولم أنتبه للأذان.

- هه... هه... ها.ها.

... حسبي الله ونعم الوكيل هذا صوت امرأة لا محالة.

- هه... ها ها ها.

- يا سبحان الله، إنه يأتي من جهة الحمام أو لعله من
خلفه من خيمة أهل الحسن. لا تستطيع الشياطين أن تلعب
بي وأنا قاهرتها ... أنا قاتلة ابن زعيمكم أيها المردة... هل
تتوقون إلى جولة جديدة. ما زال ثأر سليمان في أعناقكم
وسأنتقم له منكم يوما وربما الآن لو تقدمتم... أنا الأقوى... أنا
أم العيد... ها أنذي أقرب... لكن هذا الصوت صوت فتاة
إنسية. إنه هناك خلف الحمام. يا الله. هنالك خيال أبيض
يتحرك.

- هيه... من هناك؟

... يا إلهي، إنهما شخصان...إني أرى خيال رجل يتحرك
جهة الشرق وذلك الخيال الأسود الذي يسرع غربا. لا شك
أنه خيال صاحبة الصوت الذي سمعته ... يا إلهي إنها تلوذ
بخيمة أهل الحسن وتختفي خلف الخيمة. أتكون تلك إحدى
بنات خديجة! ... كم أنا غبية ...السالة كم ظلمتك واتهمتكم
بالحق والغيرة من خديجة وبناتها، كنت منزعة وما زلت
أذكر ما دار بيننا:

- يا أم العيد كيف تبقين على هذه الفاجرة وبناتها في
أرضك.

- السالة. اتق الله فيها. إنها مسلمة.

- أنت لا تعرفينها هي فعلا فاجرة تفتح خيمتها
للغرباء.

- أخشى أن تكوني تغارين منها ومن بناتها.

- هذا هو دأبك دائما يا أم العيد غافلة عن كل شيء
وإذا ما أردت أن أنبهك إلى ما فيه مصلحتك تتهميني مع
أنك أول من سيتضرر من السمعة السيئة لتلك المرأة لأنها
تعيش على أرضك وليس من فاصل بين خيمتها وحجرات
منزلك.

...آه...السالة لقد كنت على حق...وها هو خيال الدراعة
البيضاء يختفي داخل السيارة لتتحرك مخلقة سحابة أتصورها
سوداء داكنة تغطي سماءنا...نفثة مسمومة من آخر الليل تتسلل
إلى النفوس حين تسحب تلك الضحكة المكتومة الهواء
البارد... لعلها تلك الفتة الغرة الزهرة تسرق النومة البريئة
لقريتنا... ولكن القمر الأمين يراقبك من بعيد وحين تتمدد
على الرمل فإن الرمل سيدون ذلك... وبالطبع لن يدون
أوهام الصبية صفية ولن تمتلكوا أرضا هنا...يعرف الرمل
أنفاس أصحابه ولن تتخلى الصحراء عن ذاكرتها المليئة
بالآثار الغائرة. ولن يحوها افتيات صبية ثرثرة على
صويحاتها...حتى ولو صدقنها كما هو حال سميتي أم العيد
الصغيرة ابنة العزة حين جاءني أسيفة مندهشة:

- النينة لماذا لا تكون لك دار كبيرة وجميلة؟

- وأين رأيت دارا كبيرة؟

- تقول صفية إن أهلها لديهم دار كبيرة في نواكشوط
وإنهم سينون واحدة أخرى هنا.

- أين سينونها؟

- هناك في مكان خيمتهم ... لم لم تشتري أنت دارا كبيرة مثل دارهم . هل تستطيع سيارة كبيرة أن تحمل دارا مثلها، عليك أن تجلي لنا دارا. لقد قالت لي أمي إنك تستطيعين أن تفعلي كل ما تريدين.

- يا صغيرتي، صفية كذابة وليس عند أهلها سوى تلك الخيمة ولن يبنوا أي شئ هنا.

- لكنها قالت لنا ذلك، أسألي الفتيات في المدرسة.

- هذا كذب ولا تحدثي به أحدا. لا تسمعه منك لا العزة ولا حليلة. أفهمت؟

- نعم فهمت... لكنك لم تعطيني الحلوى بعد.

- سأعطيها لك. ولكن إياك أن تحدثي أحدا بذلك وإلا منعت عنك الحلوى في المرات القادمة.

- لن أحدث به أحدا.

... خديجة سيكون هذا جزاء الأرض التي آوتك؟ أم أن الصبية صفية غرها تخلق صويجاتها حولها فطفقت تهيم في الوهم؟ لا تنسي أن تعلميها أن أوتادي عميقة في جوف الأرض وأن التيه على الصبايا ، وهن يتحسنن الجسد الصغير الناعم وتحسد عيونهن الفستان الحريري تنبعث منه

رائحة عطر، ينسيهن زفت قطعة القطران الوحيدة المربوطة
بالخيوط على أجسادهن، لن يبني ذلك الازدهاء سوى وهم في
خيال صبية صغيرة. وقد زجرت الصغيرة أم العيد أن تحمل
لها الحقيبة وهن عائدات من المدرسة فلا يليق ذلك بسمية
أم العيد... لم يكن صندوقي يخلو من قنينة عطر ويعرف كل
السائقين عني حيي له ويجهدون في اختيار هداياهم لي منه.
وكان شيخني بوشامة ينهر حين أهديه عطرا جميلا... ليس
هذا مهما ولكن القمر سيحفظ صورة تلك الفتاة وهي تلوذ
بالخيمة وقد تعود الشياطين لسابق عهدها معنا حين كانت
تحاول طردي من هنا. أنا الحارسة الأمينة وسأقطع الطريق
عليهم كما فعلتها من قبل، لكن ماذا سأقول لخليمة بعد
اليوم وهي تلح على أن أطردهن:

- أمه أطردي هذه المرأة وبناتها من أرضنا.

- ولماذا أطردها؟

- أمه هذه امرأة فجرة... تتفتح خيمتها للغرباء.

- اخربي... ولا تعودي لمثل هذا.

- أمه ... لو رأيت ما تفعله أو سمعت عما فعلته في
الماضي لما ترددت لحظة في طردها من أرضنا. لقد جاءت هنا
هربا من العار الذي لحقها بسبب الحمل الآثم الذي حملت
به ابنتها العالية.

- أنت مجنونة وتسمعين إشاعات نسوة حاسدات.

- أنا لا أسمع إشاعات أحد. هذه حقيقة الجميع يعرفها، أنت وحدك التي لا تريدين معرفتها. لكني أنا لن أصبر على تلك الفلجرة وسأطردها من أرضنا.

- اخسئي ولا تعودي إلى هذا وإلا كسرت عنقك.

- لن أعود إليه ولو شئت فاكتي لها الأرض باسمها ودعيها هي وبناتها يفعلن ما يشأن.

... يا حليلة لقد كانت تراودني على فعل لم أكن أملك أن أفعله، لم تفهم أنني أنا حارسة الطريق الأمانة والعهد بيني وبين القرية أن أفعل ما فعلته. هكذا قهرت الشياطين وقد قال لي شيخي الشيخ بوشامة حين حرزني:

- أما أنت فلا خوف عليك من الشياطين ما دامت القدر تفور وظل السقيفة ممتدا ومادام في الشكوة شربة باردة لمسافر. لا خوف عليك بل هم من يخافونك. أنت بإذن الله قاهرتهم.

ذلك عهدي مع شيخي ومع القرية. لكن، إياك أن تفرحي بأن الظل سيظل ممدودا لك ... لن يكتب الظلام في ديوانه اسم ابنتها ولن أترك ضحكتها المكتومة تشق صمت القرية من آخر الليل. وكذلك كل بنات قريتنا لن يفعلنها.

أنا الحارسة الأمانة لغفوة قريتي ولن أطلق يدك فيها. ولست نادمة على أنني آويتك أول مرة حين قدمت، وأنت حائرة وبادرتني قائلة:

- السلام عليكم ورحمة الله.
- وعليكم السلام ورحمة الله تعالى وبركاته.
- نريد زريقاً(*) وكأس شاي.
- تفضلوا بالجلوس وسيأتيكم على الفور.
- تبدو قريتكم هذه جميلة.
- إلى أين تتجهون؟
- أوه، نسيت... أحمد أعط هذه المرأة المباركة شيئاً من خبز انواكشوط...ماذا قلت؟
- سألتك أين وجهتكم؟
- لا وجهة لي بالتحديد. لدي بنات يلحجن علي كثيراً للخروج من زمت الخريف في انواكشوط. وقد خرجت أبحث لهن عن مكان مناسب.
- من حقهن ذلك فلا يستطيع المرء في هذا الموسم الصبر على الروائح والضجيج في المدينة. لكن أين تذهبون عادة؟

(*) الزريق: مزيج من اللبن والماء يضاف إليه شيء من السكر.

- هذه أول مرة نخرج فيها. لا تعرف بناتي غير
انواكشوط. وأنا محتارة إذا أوغلت بهن في البادية أن يمرضن.
- هذا صحيح، ولا تبعديهن عن جنب الشارع. لكي
لا يستوحشن البادية.

- تبدو قريرتكم هذه جميلة.

- أرى أنها ستكون مناسبة لبناتك فهي تجمع بين
البادية والمدينة.

- أرى ذلك.

- وسأساعدك أنا بمنحك مكانا للنزول مدة ما تريدن.

- أراك امرأة مباركة ولن أعدوك.

هذا هو العهد يا سالمة... لن أفرط في وصية شيخي
ولن أجد على ذلك إلا خيرا.

عادت أم العيد إلى فراشها وقد قدرت أنه ما يزال في
الليل بقية وأن مسعودا ربما لم يؤذن بعد لصلاة الصبح
فلتغف إذن قليلا ريثما تسمع النداء... لكن خيال الفتاة لم
يفارقها وقد عاد صدى ضحكاتها إلى أذنيها، ولم تستطع
النوم بقية ليلتها، واستقبلت ذلك اليوم كئيبة كآبة لم تعرف
لها مثلا، ولم تجد لها تفسيراً.

رفهة احتلال

لم يكن لقسم الدرك في قرية الجديدة زنزانة للحجز فهو قسم صغير بعناصر يعدون على الأصابع ولم يكن السجناء يطيلون المكث في ذلك القسم بل كانوا يحالون مباشرة إلى انواكشوط وكان المحتجزون يوضعون في إحدى الحجر الثنتين عدا عن مكتب القائد. وفي تلك الليلة عندما احتجز الدرك أم العيد وابنتها أدخلوهما إلى آخر حجرة وكانت شبه معزولة ومفروشة بمحصير وقطع وسائد بالية. والساعة في حدود منتصف الليل وأم العيد مشخنة من شدة الضرب الذي أوقعه بها رجال الدرك ، وقد أزعج أم العيد بكاء حليلة فنهرتها وأمرتها أن تنام واستدارت هي إلى الحائط بعد أن أمرت حليلة بإطفاء مصباح البترول الذي وضعه الدرك لإنارة الحجرة. كانت ما تزال مدهولة مما جرى ... كيف فعلت ذلك ... لا تذكر آخر مرة غضبت فيها مثل ذلك الغضب ... ربما يكون ذلك منذ سنين بعيدة حين كانت فتاة سهلة الاستفزاز. لكنها هذه المرة كانت عيفة، تعرف

أنها منذ صباح اليوم لم تكن على ما يرام. لكن ذلك لا يبرر ما قامت به ، ومع ذلك فإن العالية ظلمة، تظن أن كأسا من الشاي من يد آثمة سيسرق أرض أم العيد...أنا قاهرة الجن التي لا تقهر...أنت ظلمة ولقد نقضتم العهد... لا أخفيك أني آسفة على أني أوجعتك. لكن الحاكم لا يستطيع أن يعطي أرضي ولن يكون ذلك ما حييت...ألا ترين إلى تلك الشجيرات في الأركان لقد غرسها إبراهيم وأنا لا أستطيع أن أفطر في تركته... آه يا إبراهيم، هل هانت عليك العشرة حتى تتركني وحيدة أصارع عن أرضك... أتذكر الشجيرات والكوخ وسقيفة العنزات التي أقمت لها، والسياح الحديدي والأعملة؟ لن يكون ذلك بعد اليوم سوى عربون لقبله مسروقة تحت جناح الليل. والعالية تدعي أن الحاكم قد أصدر لهم رخصة ملكية للأرض وأنهم سيبنون فيها دارا...آه يا إبراهيم عليك بأرضك فقد تموت العالية وأسجن أنا إلى مدى الحياة. لقد أشبعتها ضربا وكسرت ساعدها وحليمة قضمت أذن الزهرة. لن نخرج من هنا، من لنا غيرك ليخرجنا من هنا، يا إبراهيم؟... لن يكون سوى التيه والخوف، والفتاة تعود كما كانت يوم أن خرجت تسوق الأتان بأمها المريضة... لم تكن لنا وجهة لكننا نزلنا هنا، ولم أكن أعرفك لكننا كنا على موعد وقد قدرت أنك ستأتي...

ترفرف أكفء الخباء مع المساء وأنظر في الخلاء فلا أرى إلا ذلك الشارع الإسفلتي يتلوى كالأفعى في الرمل الشاحب، لا شيء سوى الرمل الممتد في كل وجهة. والمعزات الثلاث تتصايح وقد ربقت أولادها لكي لا ترضع اللبن الذي سأخضه لأعد به الزريق للمسافرين غدا عندما تتوقف السيارات قليلا أمام حانوت البكاي... لن يخطئ أولئك تلك الشربة الباردة وكأس الشاي الساخن، وربما يكون لدى الصبي عثمان خبز لين، ليس سوانا نحن الثلاثة نروض ذلك الشارع المجنون وسط أمواج الصحراء القاسية.

وفي الليل عندما يغلق البكاي حانوته ويقفل إلى أهله في أحسي كافيه ويكون عثمان هو الآخر قد غادر قبل الغروب لن أجد أنا وأمي من حمى سوى دفء الخباء نحكم إسداله. لكن الأقدام الآثمة نغصت علي نومي وحسبت أنني رأيت خيال شخص يدور بالخباء فالتصقت بأمي:

- بنيتي مالك تلتصقين بي هكذا؟

- ...أجيبيني.

لا أستطيع الكلام والأقدام الآثمة تتحرك عند ظهري ليس بيني وبينها سوى الدفء.

- ما بك بنيتي الحرارة مرتفعة في جسدك؟

- أمي هنالك شخص ما يدور بالخباء.

- ارفعي صوتك... لم أسمعك.

- لا أستطيع أن أرفعه كثيرا إن هنالك شخصا ما يدور بالخباء. لقد رأيت خياله.

- ماذا تقولين؟ شخص يدور بجائنا نحن! سأذهب لأراه.

- أمي لا تذهبي.

- مر. هاه ... من هناك ... ابرز لي أيها الجبان ... لأهشمن رأسك إن ظفرت أنا بك ... هيه ... مررر... هاه.

- يا لأمي ألا تخشى أن يهجم علينا ذلك الشبح... يكاد جسدي يفارقني من شلة الرجفة، وهي تصيح به وتبرز له لتنبيهه عن وجودنا هنا... آه كيف لنا بمن يدافع عنا في هذه الليلة الظلماء؟!

- أنت واهمة لا أثر لبشر. أنت محمومة ربما لعبت بك الشياطين، استعيزي بالله من الشيطان الرجيم.

- ما رأيته كان شخصا حقيقيا. أمي إنني أحس بالبرد الشديد.

- تدثري بالفرو ونامي، سأحرسك لا تخافي لن يصيبك مكروه.

في الصباح صدقني أثر النعل الكبيرة حول الخباء، لا شك أنها نعل لجسد عظيم جداً، الحمد لله أنه لم يقع علي. ماذا يمكن أن يدفع الخباء في ليلة مظلمة شاتية؟ أو ماذا يمكن لهذا الجسد المحموم من الخوف... أنت ضعيفة وحيدة، وها أنت طريحة الفراش. وأملك المسكينة تظن أن ذلك من عمل الشياطين وتصر على أن نذهب إلى الحجاب، كيف يجد العابرون على الطريق في هذا اليوم من يقوم عليهم! ولكن الصبي عثمان تولى على الأقل جانباً من ذلك. وقال لي الحجاب إن هذه الأرض ملك لمرءة من الشياطين وإن لهم عندي ثأراً فقد قتلت وأنا فتاة يافعة أحد أبناء ملك تلك القبيلة. وكنت يومها في أرض لقبيلة أخرى من الجن فحمتني تلك القبيلة واليوم قد نزلت بأرض أعدائي وهم يسعون الآن بكل جهودهم للانتقام مني وليس لي إلا أن أغادر هذه الأرض المسكونة بالجن فوراً. وقد قالت لي أُمي:

- بنيتي يجب أن تغادر هذا المكان بأسرع وقت. هذه مساكن، جن وينبغي أن نتركها لهم.

- إلى أين سنذهب. وبماذا نقتات؟

- أرض الله واسعة. لنذهب إلى انواكشوط سيرزقنا الله من رزقه الواسع ومن يدري فقد يرزقك الله بزواج!
- أمه دعك من هذا. لن أغادر هذا المكان وقد وجدت فيه ما نقتات به وقد يعينني الله على دوائك.
- بنيتي حياتك وعقلك أغلى من كل عيش.
- أمي سأكون بخير ما دمت لا أمد يدي إلى أحد.

لقد شبت الفتاة عن حمل الطبق إلى جارة ستشخص فيها حين ترى أن ما في القدر لا يكفي لإطعام أولادها أخرى أن تعطي منه لغيرها. وماذا للمسكينة سوى دمة مقهورة وقد رمت الطبق في الطريق ليتناثر ما فيه من فتات تلك اللثيمة؟ ولن تسعد لأكثر من يومين برعي غنم آل الهيبة فقد روعها تعقب تلك الذئاب البشرية أثرها يترصدون غفلتها وبعدها عن الحي:

- أمي. إني خائفة ولن أستطيع أن أذهب بالغنم غدا.

- وما الذي يخيفك بنيتي؟
- هناك من يكمن لي في المسارح.
- ومن هو؟ وماذا يريد منك؟

- لم أتعرف عليه، لقد كان يتبعني من بعيد. وأنا خائفة.

لن أجرب ذلك من جديد، لقد انتهت الرحلة هنا، ولا تخشوا شيئاً، أعزتي المسافرين. فهذه خيالات أم ضعيفة خائفة على ابنتها. سأبقى هنا وسأنازل الشياطين لأبني أنا والبكاي والصبي عثمان دشرة البشر. لن يغلبنا الجن عليها وسنروض الشارع والصحراء المجنونة. أنا قوية ولن تهزمي تلك الأقدام الآثمة. وسأعلق سكيناً حاداً أغرزها في كل من تسول له نفسه الاقتراب مني. أنا شبيهة بأبي كما تقول أُمي. لم أدركه فقد مات وأنا صغيرة لا أفقه شيئاً. لكن أُمي تقول إنه كان قوياً شديداً صبوراً وأنا مثله. لن ترهيني تلك العيون الشرهة التي تكاد تلتهمني ولن أُلقي بالاً إلى سخريتهم حين أصددهم... لماذا لا يصدقوني ويدعونني أحيا على طريقي التي أردت... يقولون إنني فتاة غبية حمقاء، وتعتقد أُمي أن الشياطين خطر علي. لكن تلك العيون أخطر من الشياطين، ثم جئت في الموعد يا إبراهيم، كأنما رمتك إلي غمامة ... ما الذي جمعني بك وأنت من أقاصي النعمة؟... لن تعصف الأرواح بالخباء بعد اليوم وقد خرست العيون الشرهة. تستطيع أُمي أن تذهب لرقدها الأبدية مطمئنة بعد أن أذنت في أذن ولدنا الثاني سليمان، آه يا إبراهيم كيف

رحلت ونحن لم نكمل الشوط بعد؟ كان عليك على الأقل أن تأخذني معك. لقد ذهب الشباب ولم يعد لي من جلد على الصراع... هل ستأتي؟ أنا بحاجة إليك... يظن قائد الدرك أنه يستطيع أن يضرب ابنتك حليلة ثم ينجو بها وعصاك ما تزال في يدي، كان كالجرو يتلوى بين يدي وقد رميته بعيدا لكنهم تألبوا علي... آه لو أنك كنت موجودا أو على الأقل كان سليمان لما فعلوا بي ما فعلوا ولما فكروا في اغتصاب أرضي. كان سليمان أعظم هدية منحتني إياها، لكنه هو الآخر رحل. هل أوصيته أن يتركني؟ أعلم أن الشياطين كانت دوما تسعى للثأر مني ولكنني لم أتصور أنها قادرة على أخذ سليمان فقد حرزته مرارا عند كثير من الحجابين. وكان هو قويا بحيث يستطيع أن يهزمها كما هزمتها أنا من قبل، لقد اختار أن يتبعك، لم أفهم أنه كان يدبر لذلك إلا بعد أن فات الأوان، لقد رأيت يواظب على الصلاة في المسجد ويكثر من قراءة القرآن... سليمان لماذا تركت النينة وحدها؟ هل نسيت أنني قد أحتلجك في ليلة باردة حين يعود إلي أولئك الرجال الأشداء. كما في تلك الليلة حين كنت أحكم إسدال أكفاء السقيفة لتؤوي النزلاء الذين قد يطرقونها من آخر الليل ولم أنتبه إلى الخطر الذي يحلق بي عندما توقفت السيارة أمام النزل ونزل منها ذاك الرجلان وبادرني أحدهما:

- السلام عليكم.
- وعليكم السلام ورحمة الله.
- هل عندكم من عشاء أو شاي ساخن.
- لقد نفذ العشاء ونحن كما ترى نستعد للنوم،
لكنك تستطيع أن تحصل على الحليب والبسكويت في
حانوت هنالك عند مخفر الدرك. وسأترك لكم مواعين
الشاي في السقيفة إن شئتم.
- دليني على الحمام أولاً.
- الحمام بالداخل على يسار الغرف.
- كنت غافلة تماماً لكنك كنت هناك ياعزيزي تحرسني
حين امتدت يد الرجل إلى طرف ملحفتي وأوقفني في الطريق
إلى الحمام وهو يقول :
- لقد جئت أريد الشاي من يديك الجميلتين.
- أرسل عنك طرف ملحفتي أنا لا أعد الشاي.
- دعي عنك التمتع ولنكن صرحاء. كم تطلين؟
- أنت رجل فاسق وإذا لم تخرج من هنا فسوف أمسح
بك الأرض.

- أأست أم العيد صأأبة هذا النزل المشهور؟
أنا أعرف كل حكايأاك مع السائقين، لا يمكنك
أن تنكري ذلك.

لم أأأ وقتا طويلا للخوف وأنا أنظر إلى عضلاته
القوية، فقد فلأأني يا سليمان حين نزلت على صدره
بضربة قوية من قدمك فطرحته أرضا، ثم انهلت عليه
تضربه بشلة حتى خفت عليك أن تقتله، ولم يكن لنا أأأة
بأيفته، فأألت بينك وبينه...ألا ترى أنني ما زلت أأأأك يا
سليمان؟ لقد توأأك القرية بطلا يومها، وكنت على وشك
أن أأأار لك عروسا أأيلة. لكنك ذهبت دون أن تستشيرني،
أترضى أن يمزق رجال الدرك أأسي ضربا؟ أه لقد تعبت
فعرأ أنت وأبوك لأأأأني؟ ها قد تدرت بدار أبيض
فهل ستأأيان مع فوأ الملائكة لأأأأني كما قال لي الشيخ
أبوشامة حين بأرني بأني أورية من أور الأنان، وقال إنني
في الليلة التي سأأبض فيها سأأأر بدار أبيض وستأتي
عصبة من الملائكة لأأأأني...هل ستأأيان؟ أنا أأأرة لذلك.

الصلاة الأخيرة

خرج مسعود فجر تلك الليلة ليؤذن لصلاة الصبح
ووقف في المحراب كان المسجد قد زود حديثا بمكبر للصوت
وبطارية لتشغيله وبدأ النداء:

... الله أكبر... الله أكبر... أشهد... أهن... أهن..

أبعد المكرفون عن فمه وقد تهدج صوته وانهمرت
عيناه بالدموع... وهو يقول في نفسه:

- لا فائدة لن يخرج من فمي اليوم سوى البكاء...
يجب أن أتوقف.

مكث قليلا متوقفا حتى ذهبت عنه سورة البكاء ثم
تجلد وبدأ النداء من جديد. ولما فرغ منه صلى ركعتين ثم
انزوى في ركن من أركان المسجد. وكان عثمان أول من دخل
عليه وقد فطن إلى تهدج صوته وهو يتابع الأذان وحين دخل
على مسعود قال له:

- عساك بخير يا مسعود، لا يبدو صوتك اليوم طبيعيا.
- ألم يصلك الخبر؟ لقد أخذ الدرك أم العيد البارحة.
- نعم قد علمت بذلك، لكن لا تقلق فلن يصيب أم العيد أي مكروه إن شاء الله.
- أخاف أن يقتلها ذلك القائد القاسي. لقد ضربها ضربا شديدا كما قيل لي.
- أم العيد امرأة قوية والله حافظها... أنا أعرفها ولا أقلق عليها أبدا. ثم إننا نحن لن نتخلى عنها.
- بارك الله فيكم. هذا يومكم هذا يوم الرجال الأوفياء فلا تتركوها وحدها.
- اطمئن فلن تكون أم العيد وحدها أبدا. لكن قل لي ما الذي حدث لقد كنت أغلقت الحانوت قبل الحادثة، وعندما علمت بها كانوا قد ذهبوا بها إلى القسم ولم يسمح لنا بالدخول.
- أنا كذلك كنت نائما في كوشي واستيقظت وقتها على الأصوات لكنني لم أشهد شيئا من الأحداث التي وقعت إلا أنني علمت أن حليلة سمعت أن إحدى بنات خديجة

قالت لصديقاتها إن ذلك الجزء من أرض أم العيد والذي يقيمون هم عليه خيمتهم أصبح ملكا لهم ولم يعد لأم العيد فيه نصيب. وقد أسرع حليمة إلى خيمة أهل الحسن واشتبكت مع ابنتهم تلك ولم تكن خديجة موجودة وأخبرت أم العيد بذلك فجاءت لتأخذ بحليمة لكنها سمعت تلك الفتاة تقول لحليمة:

متى كنتم تملكون شيئا أيتها الأمة السوداء، هذه الأرض منذ اليوم ملك لنا.

وقد أغضب ذلك أم العيد ف وقعت في الفتاة.

- ولماذا اعتدى الدرك على أم العيد؟

- عندما حضر الدرك أرسلوا الفتاتين الجريحتين إلى المستوصف وقد علمنا أنهما أخذتا فورا إلى انواكشوط للعلاج. وحين أراد الدرك القبض على أم العيد وحليمة واجهتهم حليمة بالسب والشتم فغضب قائد الدرك من ذلك وأخذ يضربها. فما كان من أم العيد إلا أن وثبت عليه فتضاربا باليدين، ثم أمسكت به ورفعته ورمته بعيدا، ولم يمهلهما رجاله فاجهزوا عليها، وضربوها ضربا عنيفا حتى طرحوها أرضا، ثم جروها إلى السيارة، ورموها فيها، وذهبوا بها هي وحليمة إلى القسم.

سالت دموع مسعود وحشرج صوته، لكن عثمان ربت على كتفه وقال:

- شل الله أيديهم لو أن إبراهيم حي لما حدث ما حدث.

- لعنة الله على المرض والشيخوخة. لقد كنت أفل العشرة بعصاي. واليوم ها أنا أبكي كالأطفال لا حول لي ولا قوة.

- اطمئن فلن يصيب أم العيد مكروه.

- سمعت أن أم العيد قد كسرت عظام صدر تلك الفتاة، وأنها في غيبوبة.

- قد سمعت ذلك وأرجو أن تكون إصابتها بسيطة.

استيقظت القرية ذلك الصباح بكرة على غير عاداتها حتى قام الأطفال والشواب من مراقدهم وأسرع الكثيرون إلى نزل أم العيد ومنزلها الملاصق له لمعرفة حقيقة الحادثة وكانت الحادثة. قد وقعت قريبا من منتصف الليل. وقد نام معظم أهل القرية. وفي منزل أم العيد لم يستطع مسعود أن يتحمل بكاء السائلة جارة أم العيد التي كانت تصرخ وتلعن خديجة وبناتها وتدعو بالموت والانتقام على قائد الدرك

والحاكم ونائب الوالي جميعا، وخرج ودمعته تسيل، وحث السير في اتجاه قسم الدرك، وقد بدأ معظم أهل القرية يتوجهون إلى هناك، وجعل مسعود يمسخ دمعته بيده ويقول لنفسه:

...آه ها أنت أخيرا تبكي كالأطفال عاجزا عن فعل أي شيء... تضرب أم العيد وتجرجر على الأرض وأنت في الكوخ نائم ولا يفكر أحد فيك، لأنك لن تفعل شيئا... لن تزلزل خطواتك الأرض من جديد وهذه العصا في يدك لم يعد لها من مزية سوى أنها تسند هيكلك حين تتوكأ عليها... أصبحت جبانا ولن تستطيع أن تمنع ذلك الدركي من حمل حليلة الباكية إلى السيارة وقد سقطت ملحفتها عن رأسها... لا تقبل بهذا... بل هز العصا وصل في الميدان صولتك المعهودة... لقد عاد مسعود من جديد تزلزل أقدامه الأرض ويفر كل الرجال من طريقه... وعند البئر تتعب النواضح وتستبدل وأنت واقف كالوتد تصب الدلاء الواحد تلو الآخر في الحوض من الصباح إلى الرواح... لم يكن أولئك الرجال أصحاب القطعان يقربونك ويبالغون في الهدية لك إلا طمعا في سقي ماشيتهم وخوفا من أن تذودها العصا عن الحوض... لقد مات ذلك الثور العظيم بنقرة واحدة من العصا على رأسه... لكن رجال الدرك جنباء ولن

يجرؤوا على مواجهتك، لا بد أن تنتقم لأم العيد من أولئك الرجال لقد آن الأوان لتكافئ الجميل. أتذكر يوم لقيتها فأوتك وقالت لك:

- لا. عليك ستبقى معنا هنا وسأفرش لك ذلك الكوخ لتسكنه وحدك. ولن تحتاج إلى شيء ما دمت حية؟

- إن أردت خدمتي فأجثي لي عن عمل. لقد عشت أعمل ولا أستطيع الجلوس من دون عمل وأنا قادر عليه.

- إن كنت مصرا على ذلك فسوف أتدبر لك عملا مناسباً.

- سأكون شاكرا لك.

- ما رأيك في رعي دواجن المعز لأهل القرية؟

- عمل جيد.

- لكن على شرط.

- وما هو؟

- أن تسكن هنا في هذا الكوخ الذي سأعده لك. وأن يكون طعامك وشرابك من عندي.

- ما زلت قادرا على القيام بشؤون معيشتي بنفسي.

- أنت شيخ هرم ونحن نساء ومن العيب أن لا نخدمك.

- ما ذا أستطيع أن أقول؟ يبدو أنني سأكون أسيرا لديك.

- ستبدأ في أقرب وقت عملك لدي أربع عنزات وسأجمع لك عليها عنزات الحي.

... ها قد بعثت من جديد بعد أن لفظتك حياة البئر جسدا مريضا ممزقا. وتخلت عنك مارية اللعينة وكادت الحكاية التي نسجت خيوطها بيدك أن تنتهي. ولم تكن قد استعديت لهذا اليوم... كم فتاة تزوجتها. قد لا تذكر ذلك نسيت الكثير من الأسماء حتى قال لك ميسارة:

- أنت كالثور تنزو كل يوم على أنثى. ألا تتعب من الزواج والطلاق؟ خذ إن شئت أربعا. لكن إلزمهن.

- لن أكون مثلك أيها الأحمق ولن تسيطر علي عجوز منهكة.

- خسئت هي ليست عجوزا، وهي خير من كل من تزوجتهن أنت إلى اليوم، أيها الغبي لقد رزقت منها الأولاد وعشت معها قريرا العين.

...يسخر منك ذلك النذل متباهيا بأولاده... وأأسفه، لم
تحفظ أي من نسائك النطفة ... أين كنت يا أم العيد كل
هذا الزمن؟ لقد كنت أبحث عنك من آلاف السنين فلماذا
تأخرت؟ لقد احتفظت لك بالسرفلم أعطه لأي من تلك
الأخريات. أنت سكنتني ولم تتركي مكانا لغيرك... يعيرني
صديقي بأنني كالثور لكنه لا يدرك أنني مسكون بك، فلماذا
تخلفت عن الموعد؟ هل يسليك أن لا تربني إلا وأنا شيخ
هرم، ترمين لي فتات الطعام كالكلاب، ولا تلقيني إلا وأنا
جسد بال قد نفض الجميع أيديهم مني وقد جفت النطفة في
عروقي؟ لقد نقضت العهد ومع ذلك فأنا أسأحك وسأذود
عنك، ما تزال العصا بيدي وما زلت قادرا على هزها
وسيموت الثور بضربة واحدة ... أم العيد أنا قادم إليك
وسأهزم أولئك المعتدين.

وصل مسعود إلى قسم الدرك بمبنى المقاطعة وكان
القسم قد بدأت تتوارد عليه أفواج من أهل القرية. ولم
يلبث أن امتلأت الساحة أمامه بالناس وازدحموا عند الباب
وجعل الحراس يذودونهم عن الباب وحضر رئيس القسم
فجاء حتى وقف أمام الباب وأمر الناس بالانصراف قائلا:
- هيا عودوا إلى منازلكم.

جاءته الردود:

- نريد أن نلقى أم العيد.

- لن تكلموها ولديكم دقيقتان للانصراف...

وتوجه نحو رجاله الذين كانوا تحلقوا حوله وصاح

فيهم:

- استعداد...

كان دركي الحفارة الذي على الباب يحمل مدفعا رشاشا، أما الآخرون فكانوا يتمنطقون بمسدسات، وقد أخذوا جميعا أهبتهم في صف واحد وأشهروا أسلحتهم ثم أردف:

...تصويب...

صوب الرجال فوهات أسلحتهم نحو الحشد،

فتابع قائلا:

... من لم ينسحب منهم خلال دقيقتين فأطلقوا عليه

النار.

تهامس الناس لبعضهم وبدأوا ينصرفون أفرادا وجماعات. ليس لهم قبل بالحكومة وعساكرها. وفي لحظات خلت الساحة من كل الناس إلا مسعودا الذي بقي واقفا يركز عصاه في الأرض وينظر نحو رجال الدرك، وصاح به قائد القسم قائلا:

- هيا تحرك بسرعة أيها الشيخ الهرم ... لقد نفذ الوقت.

لم يتحرك مسعود من مكانه وظل يحلق في القائد ويضغط على العصا يحس قوتها ثم يقول لنفسه:

... ما تزال قويا... هيا هزها وأقفز قفزتك التي لا تقاوم... هاهو غريمك اسويلك يتحداك من جديد، لقد تخفى في بزة عسكري هيا أقفز ولا تبال... تعد الحوض والبقرات الشارببات كلها بقفزة واحدة وأنزل على رأسه بعصاك. اسويلك لن تمنعك البزة العسكرية ما زلت أنا أنا الذي أصرعك وأهزمك... أتذكر يوم هشمت رأسك وطردتك من البئر، ثم تزوجت حبيبتك، سأفعلها اليوم أيضا... وسأخذ أم العيد معي، لقد حانت ساعتك أيها الجبان.

ومن جديد صعقه الصوت الحاد:

- هل تسمعي، هيا... أيها الهرم التافه، ولا تضطرنني إلى قتلك.

استطاع مسعود أن يمسك نفسه أخيرا بعد أن فتح عينيه جيدا وأدرك أنه لا يستطيع منازلة رجال درك مسلحين والأسلم له أن يرجع إلى شويهاته، لذلك استدار عائدا أدراجه وعصاه تطلق في الأرض.

موت البقرة الأخيرة

- أمه سرحل من هنا.
- لماذا نرحل، هذه أيام صيف ونحن على بئر ماء فكيف نرحل؟
- أمه لقد ماتت آخر البقرات وأغلب الشياه. ولم يبق إلا أن نموت نحن جوعاً، وأنا لا أستطيع أن أتفرج عليكم وأنتم تموتون كما تموت المعزاة.
- يا بني، أستعذ بالله من الشيطان الرجيم، نحن بخير نأكل ونشرب ولا نشكو شيئاً، ثم إنه لا مفر من الموت إذا قدر.
- لست أفر من الموت ولكني أبحث عن مكان أستطيع أن أعمل فيه لأحصل لكم ما تقتاتون به.
- وإلى أين سرحل؟
- أفكر في أن نذهب إلى انواكشوط.

- انواكشوط. حسي الله ونعم الوكيل ما لنا
ولنواكشوط. مدينة النصارى والعساكر؟!

- كل الناس يذهبون إليها ويحصلون على الرزق
والمأوى.

- لن أذهب إلى نواكشوط، لا أحب جوار النصارى
والعسكر ولا أطيع أئمة السيارت.

- أمه نواكشوط ليس فيها إلا المسلمون وقد ذهب
إليها كل أهلنا أفلا نذهب نحن إليها؟

- لن أذهب إليها. وإذا كان لا بد لك من رحيل
فأذهب بنا إلى إحدى الحواضر القريبة عند الآبار من حولنا.

- وماذا في تلك الحواضر سوى ما نحن فيه. سوف
نموت جوعاً، أمي وجدتها، سأخذكم إلى الجديدة.

- الجديدة، تلك القرية الصغيرة التي مررنا بها ونحن
قافلون من عند الطبيب ابن أوفى يوم أخذتني للاستشفاء
عنده. وماذا ستجد في تلك القرية غير أئمة السيارت المزعج
على ذلك الشارع؟

- يمكن أن أترككم هناك وأمضي أنا للبحث عن
عمل... ربما إلى نواكشوط أو السنغال.

- سترميننا وتذهب.

- لن أرميكم ذلك ظهر الطريق أستطيع أن أصل إليكم في ضحوة، وإذا حصلت على شيء أستطيع أن أرسله إليكم بسهولة.

- لست مطمئنة إلى هذه الرحلة.

- ستكون رحلة خير إن شاء الله.

... هيا. تحرك بهم ما دامت قد لانت لك، إذا غيرت رأيها فستجد عناء كبيرا في إقناعها... ربما تكون هذه هي الرحلة التي كنت تحلم بها... كيف يصبح عبد القادر معلما وتبقى أنت هنا خلف شويهاش يساقطن صيف طويل، كان ضعيف الذاكرة وكنت تسبقه للحفظ وتصلح له ما يعجز عنه ... قبح الله تلك الحمى اللعينة التي ذهبت بأبيك وأختك فاضطرتك إلى الخروج من الحظرة قبل أن تأخذ الإجازة... هذه فرصتك للرحلة العظيمة إلى نواكشوط. لن تبكر بعد اليوم في إثر تلك الشويهاش، إنهم لا يركبون الحمير في نواكشوط، ولا يرهقهم امتياح الماء من الآبار العيمقة، ليس سوى النوم أو تدريس الأطفال في حجرات اسمنتية باردة... عبد القادر سألق بك ولن أعجز عن أن أفعل ما فعلت، لقد كنت دوما أحسن منك... أتذكر حين كنت في كل مرة أسبق

للحفظ وأبصق على رأسك وأنت خاسئ تحت عين شيخنا
والتلاميذ يضحكون منك؟ مازلت قادرا على ذلك ... لكن
هذه الحمير بطيئة:

- مريم...مريم، حتي حمارك... فالطريق طويل جدا.

- هل فعلا قررت أننا سنستقر في الجديدة؟

- نعم لقد قررت ذلك.

- الجديدة ليست شيئا، أخبية ودكان على حافة طريق
مقفر، الأحسن أن نتجه إلى انواكشوط.

- لقد امتنعت أمي عن ذلك.

- لو رأيت منك إصرارا على الذهاب إليها لوافقتك.

- هذه أمي وأنا لا أكسر إرادة أمي.

- أمك وحدها هي صاحبة الكلمة المسموعة أما نحن
فلا رأي لنا.

- دعك من هذا، واسألني الله لنا التوفيق والرشاد.

«...هدين»، يا حماري العتيق لا تتوقف... يجب أن
تواصل. الجديدة باتت قريبة...أعرف أنك تسير منذ صباح

يوم أمس وأنت متعب، وقد دوختك الآن حرارة الزوال
ولكني لن أستطيع أن أنزلهم قبل الوصول. لقد نفدت آخر
سفة من الدخن ولن يدفع الماء الأسود نار الجوع ... يجب أن
تصبر لكني سأريحك مني لأنني سأبيعك في الجديدة لأدفع
أجرة السيارة إلى نواكشوط.

- عبد الله... يا عبد الله، أين أنت؟

- لبيك أبت أنا هنا في أثركم، بنت الدهماء تكاد
تموت.

- دعها عنك وسق المعزات الأخريات. سأعود أنا
إليها لأذبحها.

... لم تدركها لقد ماتت قبل أن تلحقها حرمتكم
الملعونة من لحمة مهما تكن غثة فإنها ستكون أحسن من
الجوع. لقد آثرت بها الغربان، وتأسفت أُمي على ذلك
وقالت صابرة:

- بقي الله وكفى.

... أزيز السيارات يكبر في مسامعك ثم يكبر فتستيقن
أنكم قربتم أن تصلوا ... تنفس بعمق وأوقف حميرك على
مسافة من الدكان والأخبية ثم الجأ إلى أمك لعلكم بدعوتهما
الصالحة تصييون خيرا في مستقبل أيامكم:

- أدعي لنا دعاء المنزل.
- رب أنزلني منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ... أراه سيكون منزلا مباركا وسنصيب فيه خيرا كثيرا.
- ... لفتت نظرك تلك المرأة السوداء القادمة إليكم في هذا الهجير فقلت لمريم:
- انظري إلى تلك المرأة القادمة برأيك من تكون؟
- أراها تحمل بيدها قدحا، لعلها قدرت عطشنا في هذا الحر فجاءت تنجدنا بشراب.
- قالت المرأة وهي تبادر أمك:
- السلام عليكم ورحمة الله.
- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.
- تفضلي اشربي، أيتها الوالدة.
- قالت أمك بعد أن ارتوت.
- جزاك الله خيرا أيتها المرأة الطيبة...
- ثم نظرت إليك وأردفت :
- ...يا ولدي، أرى أننا سنصيب خيرا كثيرا هنا فهذه المرأة الطيبة فأل خير.

تشبث بذلك الأمل من أمك ابنة الأولياء الصالحين
... تلك دمة الرجاء ولكن لا يليق أن تلحظها منك مريم
والأطفال فيصدمهم ضعفك وقلة حيلتك... لكن تلك المرأة
لم تمهلهم واقتادت حمار الخيمة إلى قريب من الدكان
والأخبية وأصرت على أن تنزلوا هنالك ثم قالت لك:

- نحن سنبنى الخيمة هذا عمل النساء ولا شأن
للرجال به. خذ العجوز والأطفال إلى ظل الخباء، أنتم اليوم
ضيوف علي.

ما زلت تجد طعم تلك اللحم اللذيذة في جوفك،
ولأول مرة تشرب الشاي بالنعناع، تلك النبتة العجيبة التي
لم تر مثلها في حياتك. يقال إن شلوح المغرب هم الذين
جلبوها إلينا... لم تجد من يشتري منك الحمار وقد مزقتك
الحسرة على مريم الداوية إلى جوارك بعد أن لم تستطع
لليلتين ويوم التأقلم مع ما تبعث به أم العيد من وجبات،
فلم نكن نعرف الكسكس إلا سماعا عن أهل الشرق، وأما
المكرونة فكانت جديدة تماما علينا وحتى السمك لا نعرفه
إلا مجففا وأما عند أم العيد فقد وجدناه طريا مع الأرز...
لليوم الثالث والحمار كاسد لا يجد من يشتريه ثم تدخلت أم
العيد عند أحد معارفها ليشتريه وكان ما أعطاه فيه زهيدا،
لكنني استطعت على الأقل أن أؤمن لهم ولأول مرة شيئا من

حاجتهم... وها أنا أخيرا أستطيع أن أسافر إلى انواكشوط،
مازلت قلقا بشأن الأسرة ولا أدري كيف أستطيع أن أتركهم
خلفي لكن كان لأم العيد رأي آخر:

- إلى أين ستسافر؟

- لست أدري وإن كان أغلب ظني أنني سأتجه إلى
انوكشوط.

- وبماذا تنوي أن تشتغل في انواكشوط؟

- لست أدري، فأنا لا أحسن أية صنعة، لكن هناك
من كانوا مثلي في المحظرة وذهبوا إلى انواكشوط وصاروا
معلمين فرميا أصبح معلما أو أتعلم التجارة لأصبح بائعا في
حانوت.

- لدي فكرة أخرى.

- وما هي؟

- ما رأيك لو بقيت معنا لتكون لنا إماما ومعلم
أطفال؟

- ليس لديكم مسجد، ثم كم هنا من الأطفال؟ لا
أراهم يزيدون على أصابع اليد.

- أما بالنسبة للمسجد فأعرف رجلا من أهل
انواكشوط مستعداً لبنائه في سبيل الله وسأعرفك عليه وربما
يقتطع لك راتبا. وأما الأطفال فسوف أجمع لك أطفال قريتنا
وحتى من أحسي كافيه.

- أعرف أنك حريصة على مساعدتي، لكن لا أظن
أن هذا يستطيع أن يكف رجلا ذا عيال.

- بإذن الله ستصيب خيرا كثيرا فهذا الرجل الذي
حدثك عنه رجل غني ومنفق في سبيل الله، كثيرا ما ينزل
عندي وهو في طريقه إلى المدرزة، حيث إبله ولم يحدث أن
مرمن هنا إلا ووزع شيئا من الصدقات على المحتاجين. ولقد
عبر لي مرة عن رغبته في بناء مسجد هنا.

لم يكن لأم العيد أبناء بعد لتهتم بتعليمهم، ولا ترتاد
النساء عندنا المساجد. لكنها بقدرة قادر تسربت إليك من
أول يوم...دخلت إلى تفاصيلك الدقيقة وحملت همك. هل
كنت تحمل خاتم سليمان أم أن الصالحين من أسلافك ركبوا
شخص تلك المرأة فسخروها لخدمتك؟ سأؤجل الرحلة. عبد
الحميد أنا قادم إليك والأيام بيننا لكن دعني ألتقط أنفاسي
قليلا حتى أختبر خطط أم العيد وأتدبر كيف أحتال على
أمي المصرة على أن لا أتركهم وحدهم...

تواردت تلك الأفكار على الإمام وهو يستعد للذهاب لصلاة الجمعة. تعجب كيف مر شريط حياته بهذه السرعة وعلى هذا النحو الذي لم يفكر فيه حين فر بأهله في ذلك الصيف الأسود الذي لم يبق ولم يذر، وقرر أن لا تفوته تلك الجمعة حتى يذكر أم العيد بشيء قد يلفت الانتباه إليها. وفي آخر خطبته قال:

«... أيها المسلمون لن تمر هذه الخطبة حتى نذكر كرب تلك المرأة المسكينة أم العيد. ونسأل الله لها الفرج القريب، وندعوه أن يردها إلينا، ويرد عليها أرضها التي سلبت منها، إنه ولي ذلك والقادر عليه، ولا تنسوا أنتم أن تدعوا لها في سركم وعلا نيتكم جزاكم الله خيرا».

ولما انفتل الإمام من صلاته بدأ الناس بالخروج ولقي عثمان صمبه في الساحة أمام المسجد وتحدثا في قضية أم العيد وتألف حولهما جماعة من أهل القرية فقال صمبه:

- يا جماعة المسلمين، هذه المرأة مظلومة وعلينا جميعا أن نقف إلى جانبها وندافع عنها مهما تطلب ذلك الدفاع. علينا أن لا نترك هؤلاء الظلمة ينجون بظلمهم.

جاء صوت من وراء الرجال:

- من قال لك إن أم العيد مظلومة لقد اعتدت على نساء أمنات وضربتهن وجرحتهن؟

تطلع صمبه إلى المتحدث وقال:

- دعوني أرى وجه هذا الخبيث الذي يتهم أم العيد...
من أنت وما الذي أغراك حتى تصفها بذلك الوصف؟
علق أحد الحاضرين:

- إنه حاقد عليها بسبب أنها كانت رفضت أن تزوجه ابنتها.

- هذا كذب، كيف لي أن أطلب القرب من امرأة متعجرفة مثل هذه.

اقترب صمبه من الرجل حتى صار في متناوله فصفعه بيده وقال:

- يا شقي، لئن عدت لمثل هذا لأضربنك ضربا مبرحا.

استدار الرجل منحنيا واضعا يده على محل الضربة وحال الناس بينه وبين صمبه. وكان صمبه رجلا عظيم الخلقة قوي البنية قادرا على البطش بذلك الرجل من دون

أدنى عناء. وحدث هرج وأمسك ناس بالرجل يقتادونه بعيدا
عن الساحة حتى اختفى عن الأنظار وعاد الرجال إلى
حلقتهم فقال عثمان:

- أيها الإخوة، لقد سعيينا هذا الصباح أنا والعملة
وعبد السلام إلى أن نطلق سراح أم العيد مؤقتا حتى يحين
موعد إحالتها. لكن الحاكم كان غائبا وقائد الدرك تعنت
جدا ورفض الاستجابة لطلبنا. علينا أن نتشاور في الطريقة
التي سوف نعالج بها هذه الأزمة.

اخترق عبد السلام الجمع حتى وقف في منتصف
الحلقة وقال:

- يا إخوتي، الحرارة الآن مرتفعة وأنا أدعوكم جميعا،
أنتم وبقية رجال الحي إلى الحضور إلى منزلي بعد صلاة
العصر لنعقد اجتماعا هنالك ونرى كيف يمكن أن نعالج
هذه الأزمة.

وافق الجميع على اقتراح عبد السلام وانفض الجمع.
وأخطر غالبية رجال الحي بالاجتماع. وبعد صلاة العصر
شوهدت سيارة الدرك على باب منزل أهل عبد السلام،
وكان هناك أربعة من رجال الدرك يسدون الطرق المؤدية

للدار، ويأمرّون كل قادم إليها بالعودة إلى منزله. وبدأ أن
الدرك يريدون الحيلولة دون الاجتماع. ولم تلبث أن اندفعت
إلى داخل القرية سيارات عسكرية وتوزعت في كل اتجاه
وكونت دوريات راجلة جابت الأزقة وأمر الناس بلزوم
منزلهم، وما هي إلا لحظات حتى خيم السكون على القرية.

طعم التدي

أمر عريف الدرك عبد السلام بالصعود إلى السيارة
فسأله عبد السلام قائلاً:

- ولماذا أصعد إليها؟
- قائد الفرقة يريدك.
- ولماذا يريدني؟
- لست أدري ستعرف ذلك منه عندما تقابله.
- سأستقل سيارتي. عودوا أنتم وسألحق بكم.
- لقد أمرنا أن نأتي بك.
- ولماذا هل أنا مجرم، أم أن خديجة وبناتها غاضبات
مني؟

- سل القائد عندما تقابله.
- قائدكم مغرم بالعنف لكن أخبروه أن ضرب امرأة
ضعيفة هي وابنتها وترهيب ناس عزل لن يححو عنه عار

ضرب أهل مدينة كيفه له. لسنا نحن الذين اعتدوا عليه،
لقد استقبلناه من أول يوم وفتحنا له بيوتنا.

لكن يبدو أن مواضع الضرب ما تزال توجعه.

لم يعلق أي من الجنود على حديث عبد السلام
وعذرهم هو في نفسه:

... لن يعلقوا على كلامك. إنه قائدهم... يجب أن
يكون له سجن يرهب به الناس ولم يكن أسلافه من قادة
هذا القسم يسجنون الناس ولا كان لديهم سجن... لا حدود
للصحراء والقرية بنت هذا الشارع الممتد بلا نهاية. أم
العيد أنت صنعت الوهم وروضت الشارع، تعمقين أوتادنا
في الأرض، كنت أتمدد في الرحم احتججا على تلك الرحلة
التي ستحرمني ركوب الإبل وخوض الصحراء منذ أن
ينيخوا عند خبائك منهوكين بعد ثلاث... أمي تتهاذى في
الهودج بين خدر النعاس وحرقة الجوع على ألم الحمل، ولن
يجد أبي حين يمسي ما يفطر به سوى سفة من الدخن
يقزقزها بين أسنانه بعد أن يبللها برشفة ماء شن، ثم يدعو
الله أن يتقبل منه ويهيء له من أمره رشدا... أنت ألغيت
الرحلة ودفعت لأبي ثمن شاة فكانت الشاة شاتين وثلاثا
وحانوتا ومخازن... أنا قادم إليك يا أمي يا أم العيد وسأنقذك

من هؤلاء الظلمة، نعم أنت أُمي ومازلت أجد طعم ذلك
الثدي العظيم في فمي. رحمة الله على سليمان إذ كان يترك
لي ثدياً ويأخذ هو آخر ثم أتمد في حجرك وأضرب بقدمي
ريان وأحبو بين الصحون. سأستأجر طبخة للنزل ولن أترك
تلك القدر تنزل عن النار رغم أن بيني وبينها ثأراً قديماً ما
تزال آثاره على ساعدي منذ أن كوتني نارها. ولن أصحب
أختي في الليل حين تدعوني لأذهب معها إلى خيمتنا. بل
سأبقى لأتدفأ تحت الفرو بجانب سليمان ثم نندس في
جسمك العظيم اتقاء لشر نهرة إبراهيم حين تشكو له
حليمة أننا حرمانها من الفرو. ونتسابق إليك فجر ذلك
اليوم الشتوي لنشرب اللبن الساخن بالتمر... آه من هذه
السيارة العنيفة، سترك الألم في ظهري بحركاتها، لا بد أن
أحدهم أوحى إلى ذلك القائد بموعد اجتماعنا فأراد أن يحول
بيننا وبين ما أردنا... لكننا لن نسكت على ذلك، وسنقف
في وجهه. أم العيد ستخرج من السجن ولن يأخذ أحد شبرا
من أرضها... لم يفكر أبي في هوايتي وإنما نظر إلى مصلحة
تجارته:

- هذا يكفي لقد حصلت على شهادة الجامعة وأنا
بحاجة إلى مساعدتك.

- أبي إنني أحب أن أتدرب على مهنة المحاماة.

- لقد رزقك الله من المال الحلال بما لا يحوجك إلى وظيفة.

- أحب أن أدافع عن المظلومين.

- لقد ضعفت وعليك أن تستلم إدارة الأعمال بأسرع وقت، ستبدأ من الغد الذهاب معي إلى روصو لتتدرب على إدارة العمل أمامك أشهر لتفهم كل شيء.

انتباه!... قضيت على كل أحلامي... ما أحسن لو كنت أنا الذي سيدافع عن أم العيد. لكنك فعلتها، ومع ذلك فقد كان قرارك في محله ... رحمك الله، ما علينا. أم العيد، سأختار لك أحسن المحامين وستخرجين من السجن بأسرع وقت. فلتمت العالية إن شاءت أو فليمتن جميعاً، لن تذهبي فداء لعيونهن بل هن اللواتي سيذهبن فداء لعينيك...

توقفت السيارة العسكرية أمام منزل الإمام وأخذوه معهم ودارت في الحي لتأخذ عثمان ثم انطلقت إلى القسم.

شهادة أبوة

حدث في مساء ذلك اليوم بعد قبض الدرك على أولئك الرجال وقبل غروب الشمس أن اشتعلت النار في خيمة أهل الحسن. وكانت الخيمة قد تركت على حالها بعد الشجار وبعد أن رحلت بنات الحسن إلى انواكشوط للعلاج من الجراحات التي أصابت اثنتين منهن. ويلمح البصر أتت النار على الخيمة بكاملها ؛ وبما فيها ؛ حتى طاولة المتاع وما عليها من حشايا، وحتى الحصائر تفحمت. وما استطاع المنقذون تلافي شيء من ذلك رغم مبادرتهم لإطفاء النار. وكانت الخيمة قريبة من منزل أهل شقران تحاذي حائط الطين الصغير الذي يحد بين منزل أم العيد ومنزل أهل شقران ورغم أن السائلة والدة أهل شقران انتبهت للحريق أول وهلة فقد اكتفت بأن أطلت من الحائط تتفرج ولم تحرك ساكنا ومنعت بناتها من المبادرة إلى إطفائها وجعلت تزجر أولئك الذين بادروا إلى إطفاء النار وتقول:

- دعوها تحترق فلم تب إلا على فجور، دعونا نتخلص من آثار أولئك الفلجرات.

ولم يمر وقت طويل حتى اندفعت إلى المكان سيارة للدرك بأشر رجالها بإطفاء النار وبالتحقيق في الحادث واستجوبوا كل الحاضرين بمن فيهم السائلة وبناتها ولم تسلم من ذلك العزة التي كانت مذعورة مضطربة منذ ليلة البارحة فقد عاينت الدرك وهم يجرون أم العيد عنوة. وقد حاولت أمها أن تحول بين رجال الدرك وبين استجوابها متعلقة بمرضاها. ولكنهم أصروا على استجوابها وقد فزعت لذلك وخشيت أمها عليها أن يعاودها المرض وظلت بقية اليوم تراقبها وتمنعها من الحركة أو الإطالة على الخارج حتى لا ترى ما يثيرها فيعود لها المرض وفي مساء ذلك اليوم غافلت العزة أمها وخرجت. وصادف خروجها انتشار دوريات للدرك في القرية، فكمنت غير بعيد من الشارع وجعلت تراقب الجنود وقد برزوا بكامل عدتهم يذرعون الشارع جيئة وذهابا يسرون في صف مستقيم. وقد سكنت الحركة في الحي إلا من حركة طفيفة لبعض المسافرين في موقف السيارات العابرة عند الحوانيت. كان ذلك أشبه بمظاهر احتلال عسكري، وتذكرت ما أدركت أهل القرية يحكونه عن مجيء البوليزاريو إلى قريرتهم والرصاص الذي أطلقوه.

وأصابها الفزع وسرت في جسمها رجفة، وبينما هي كذلك مر بجانبها رجل بدا أنه يريد أن يغافل الدرك ليبر الطريق فانشالت إليه وتشبثت بكمه وجعلت تدور كأنما تريد أن تندس في دراغته وهي تقول له :

- سليمان، سليمان ... أدركني يا سليمان لقد جاء البوليزاريو ... إنهم يبحثون عني وسيقتلونني ... بالله عليك لا تركهم يقتلونني.

جعل الرجل يبعدها عنه ويعاسر ليتخلص منها وهو يقول لها:

- يا مجنونه أنا لست سليمان وهؤلاء ليسوا بوليزاريو.

- بلى أنت سليمان. وعليك أن تدافع عني هذا يومك ... هذا يوم الرجال.

لوى الرجل يد العزة ليخلص منها كمه وهو يقول:

- قلت لك إني لست سليمان.

صرخت من ألم ما فعله بها وقالت:

- سليمان هذه مغازلة عنيفة، أتريد أن تكسر ساعدي.

تملص الرجل منها ودفعها بيديه إلى الخلف ثم أسرع
في سبيله وبقيت هي مكومة تبكي وتصرخ:

- سليمان ... واو ... سليمان ... واو.

أسرعت إليها أخواتها وأسندنها حتى وقفت وجاءت
أمها السالمة تردد:

- لاحول ولا قوة إلا بالله ... لا حول ولا قوة إلا بالله.

وردت لها طرف ملحفتها على رأسها ثم اقتادتها إلى
المنزل واختلست بعض الفتيات من البيوت المجاورة خلوة
الزقاق من الدوريات فلحقن بالعزة في منزل أهلها وكانت
ما تزال تهذي حتى إذا اقتربت منها إحدى الفتيات، جمعت
ريقها ثم بصقت على وجه الفتاة وقالت لها:

- ماذا تريدن، أيتها الساحرة ابنة الساحرة، أمك
سحرت سليمان حتى قتلته وسحرتني أنا حتى مرضت،
اخرجي أيتها الأفعى، لكن سليمان لم يمت لقد ذهب
ليجلب لنا أسلحة نقتل بها البوليزاريو وسيعود
وسيتزوجني وستخسئين أنت وأمك وتشربان سم الغيرة.

ولت الفتاة هاربة وهمت العزة أن تلحق بها.
وجعلت أمها تمسكها وتقول لها:

- اجلسي يا بنيتي. استعيني بالله من الشيطان
الرجيم.

ولم تزل بها حتى أجلستها وأسرعت إليها إحدى
أخواتها بقدح من الزريق لتشرب منه فأمسكت بالقدح
تأمله ثم قالت لأختها:

- إني صائمة.

أجابتها أختها:

- لقد غربت الشمس وحان الفطور.

- أنا لا أصوم كما تصومون، أنا حورية من حور الجنة
أبيت وأظل أتنعم في الجنة.

ضحكت فتاة أخرى، فنظرت إليها العزة وقالت:

- ماذا يضحك أيتها الوضيعة، لقد كانت أملك
يسوؤها أن تدور علينا صحنون أم العيد وتسعى بكل وسيلة
إلى أن تدس بيننا وبينها، ولكنها خسئت فلم تزل أم العيد
إلى اليوم تبعث لنا بما كانت تبعث به، ولم تزل علاقتنا بها
قوية.

فجأة دلقت العزة قدح الزريق على تلك الفتاة، حتى
استحم جسدها به ولزق ثوبها عليها، وأخذت السالمة

تضرب العزة وتعنفها على ما فعلت بالفتاة. وانشغلت العزة بابتها التي استيقظت باكية فأخذتها ووضعتها في حضنها وأخذت تهدئها حتى سكنت فسألتها:

- من هو أبوك؟

أجابت الصبية:

- عبد الله.

نهرتها العزة قائلة:

- كذبت أبوك سليمان وليس عبد الله. وقد سميتك أم العيد باسم جدتك.

- ليس هذا صحيحا...أبي عبد الله.

- قلت لك عبد الله ليس أياك.

جذبت السالمة الفتاة من يدي العزة وهي تقول لها:

- لا تشوشي على الفتاة فهي تعرف أبها.

نظرت العزة مليا أمها ثم سألتها:

- من أنت؟ أنا لا أعرفك... هل أنت أم العيد؟ لا...أم العيد لا يمكن أن تكون أما لي ولن أقبل أن ترضعني... لن يكون سليمان أخا لي..لا..لا سليمان زوجي وليس أخا

لي... لا يا أم العيد ثديك حرام علي... هذه الصبية إذا لم تكن
ابنة سليمان فسأقتلها... من هو عبد الله؟ أنا لا أتزوج أمثاله.

لم أجن شيئاً من الزواج به. وما ذا. يستطيع فقير أن
يقدم لي؟ إذا عاد من انواكشوط مرة أخرى فسأطرده... أنا لا
يتمتع بي الضعفاء المعدمون، فلتأخذه أولئك البغايا اللواتي
كن يحسدني على سليمان ... لكن قولوا لي بالله عليكم
من أنا؟ أنا لم أعد أعرف من أنا.

أجابتها أختها:

- أنت العزة ابنة شقران.

- كذبت، شقران ليس أبي. لقد هرب وتركنا وحدنا.
اسأليني أنا التي كنت أجمع برازك أنت وإخوتك حين كنتم
كسيحين تجرون بطونكم على الأرض... اسأليني أنا عن تلك
الرائحة النتنة تفوح من ذلك الحصير البالي. وبكاؤكم
جنب أمكم المريضة وهي لا تجد ما تسد به رمقكم، حتى إذا
جاءنا صحن أم العيد شبعتم وغمتم. أين كان شقران حين كاد
البرد يقتلكم في تلك الليالي الشتوية القارسة لولا ذلك
الفرو البالي الذي أسعفتنا به أم العيد؟ أنا أكره شقران
ليس هو أبي. سأختار أبا غيره لكن من ياترى سيكون لي
أباً؟

كانت أمها تسكتها وقد ساءها ما كانت تحكيه
فجعلت تكلم فمها بيدها وتقول:

- كفاك يا مجنونة.

- لئن كنت مجنونة فإنني لن أنسى الدموع التي كنت
تذرفينها وأنا أنظر إليك. وحين أسألك عن سبب بكائك
تمسحين دمعك وتجيئينني لأشيء، لن أنسى ذلك وقد كنت
أنا بدوري أبكي لبكائك. لا يسرني أن يكون شقران أبي
ولذلك سأختار أبا آخر.

قالت إحدى الفتيات ضاحكة:

- عليك بالعملة.

أجابتها العزة:

- العملة!... لن يسرني أن يكون أبي سارق اسعافات
الفقراء.

قالت فتاة أخرى:

- وإمام المسجد؟

- لن تقبل زوجته بذلك لأني أجمل من بناتها.

نهت السائلة الفتيات قائلة:

- كفى أخرجن من هنا بسرعة.

قالت العزة:

- ليس قبل أن يشهدن على أبي الجديد.

- لكن يجب أن يشهد أخي المختار على ذلك ... أين أنت يا مختار، لم تأت للدفاع عن خطيبتك وأمها.

سألتها أختها:

- ومن هي خطيبته؟!

- حليلة.

- ومتى كان ذلك؟

- يا لجوجة. من الآن لقد قررت أنا ذلك وسينفذه أخي. سيتزوج حليلة ابنة أم العيد التي قدمت له الدعم حتى ملك تلك السيارة القوية ينقل فيها المسافرين... أين أنت يا أخي، يجب أن تأتي... وإلا فسأقطع الصلة بك ولن أدعوك أخي كما قطعت الصلة بشقران وسأخذ أبا غيره... نعم سأخذ أبا غيره...

التفتت إلى الفتيات وقالت:

- ما رأيكم في أن أأخذ أم العيد أبا لي؟ نعم هي أحق بأبوتي من غيرها.

قالت لها أمها:

- يا بنيتي دعك من هذا الهذيان واستعيني بالله من
الشیطان الرجیم.

- أمي لا تخافي أنت ستبقين في مكانك أما لي.

أقبل الشيخ عبد الرحمن مسلماً. وكانت السائلة قد
أرسلت في طلبه مستحثة إياه ليرقي لها العزة وقد استطاع
الوصول إلى منزل أهل شقران عبر زقاق ضيق لا ينتشر فيه
رجال الدرك. وردت عليه السلام

ثم قالت له العزة :

- هل عندك قلم وورقة؟

- عندي قلم فقط.

قالت لأختها:

- إلي بورقة من دفاترك.

قال لها عبد الرحمن:

- وماذا تريدین بقلم وورقة؟

- أريد أن أُملي عليك وتشهد لي أنني اتخذت أم
العید أبا لي...هل ستشهد لي على ذلك؟

- لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم لم تجدي غير امرأة لتكون لك أبا!

- أجبني فقط هل ستشهد على ذلك؟

كان عليه أن يكسب ودها وهو بصدد رقيها فقال لها.

- نعم سأشهد لك على ذلك.

- لكن لا تطمع أنك ستزوجني، فأنا ملك لسليمان وأمثالك لا يتزوجوني.

طردت السالمة الفتيات واقتادت العزة إلى داخل الغرفة ودعت عبد الرحمن للدخول عليها، فأقبل حتى جلس قبالتها ووقفت السالمة في الباب، بينما أمر عبد الرحمن العزة أن تطأطئ رأسها ففعلت وبقيت ترقبه بعينها وهو يضع يده على رأسها ويحرك شفتيه. مرت هينهة ثم رفعت العزة رأسها ونظرت إلى عبد الرحمن مليا ثم فجأة رفعت يدها وصفعته على وجهه فانتفض شاخصا ووقفت هي، وأقبلت أمها تنهال عليها ضربا وهي تقول:

- يا مجنونة ما الذي حملك على هذا؟!

- لقد ذكرتني لحيته بلحية تيس كان ينطحني وأنا صغيرة.

راغت العزة من أمها وجعلت تدور بعبد الرحمن
تحتمي به حتى إذا قابلت باب الغرفة خرجت منه مسرعة
وأطلقت ساقها للريح وصاحت السالمة بالبنات أن يلحقنها
ولم تلبث العزة أن تعثرت عند الباب فلحقت بها السالمة
وأعادتها إلى الغرفة. كان عبد الرحمن قد خرج من الغرفة
ووقف أمام السقيفة محتارا بين الذهاب وبين الانتظار. ولم
تكذ السالمة، تدخل العزة إلى الغرفة حتى أقبلت عليها. ابنتها
الصغرى ترتجف وهي تقول:

- أمي...أمي الجنود قادمون.

تطلعت السالمة فإذا بمجموعة من رجال الدرك مقبلين
عليها، وفزعت البنات داخل البيت يهتمين خلف أمهن
ولزقت بها العزة. أما عبد الرحمن فبقي مشدوها في مكانه.
وجاء الجنود حتى توقفوا قبالة عبد الرحمن:

وسأله العريف قائد المجموعة:

- هل هذا منزل أهل شقران؟

- أجل هذا هو منزل أهل شقران

- وهل أنت شقران؟

- لا أنا جارهم.

- وأين هي السالمة؟

أجابته السلالة قائلة:

- أنا السلالة.

التفت إليها وقال:

- تعالي معنا.

- ومن أنتم؟

- ألا ترين بزاتنا.

- بلى، ولكني لا أعرفكم.

- ليس لدينا وقت للجدال ويجب أن ترافقينا.

- ولماذا أرافقكم؟

- أنت متهمة بإحراق خيمة جيرانك.

- أنا... السلالة!

- نعم أنت أحرقتها.

- هذه أكذوبة ولن أذهب معكم، لم يأت رجال درك

القسم الذين نعرفهم.

- هيا، خذوها.

هم الجنود بالإمساك بها لكنها رفعت يدها وقالت:

- سأذهب معكم.

توقف الجنود وأرادت السلالة أن ترافقهم. لكن العزة وأخواتها تشبثن بها فرفع أحد الجنود رجله وهم أن يضرب العزة بنعله العسكرية فأرسلت طرف ملحفة أمها وكذلك فعل أخواتها. ودست رأسها في ملحفتها هي وبقيت جامدة لا تتحرك. بينما أحاط الجنود بالسلالة التي استسلمت لأوامرهم وخرجت معهم مذعورة وعينها خلفها، وجعل عبد الرحمن يرد البنات عن اتباع أمهن ويقول:

- ستعود إليكم... ستعود إليكم.

وعند السيارة العسكرية سمعت السلالة جارتها الحسنية تقول:

- يا ويل أم عدوي... أهذه أنت يا سالمة؟

فرفعت رأسها ونظرت إليها من بين دموعها، وقالت لها:

- أدركي العزة لقد عاودها المرض. والبنات مذعورات جميعا.

- لماذا يذهبون بك؟

- هل تظنين أن أيا منا سيسلم منهم بعد أن أخذت أم العيد؟

- كلا لا أظن ذلك ونحن نتوقعهم في أية لحظة.

- هم قادمون إليكم لا محالة.

- تشجعي ولا تخافي، وسأعتني بالعزة وأخواتها.

كان أهل الأبيات والحيطان المجاورة لمنزل السلالة قد وقفوا على أبواب منازلهم يراقبون ما يقوم به الجنود وحين رآهم العريف صاح فيهم قائلاً:

- ألم يصلكم أن الخروج من البيوت ممنوع هذه الليلة؟ ليدخل كل منكم بيته.

ركبت السلالة السيارة العسكرية وأحاط بها الجنود ودار السائق بسيارته على الأبواب المطلة على المكان ففزع الناس إلى داخل بيوتهم يغلقونها عليهم ثم انطلقت السيارة في اتجاه قسم الدرك.

حسن الدم

قفز الفتى من الحائط وقال لأبيه:

- يا أبت. لقد تم كل شيء كما خطط له وقد أخذ
الفتيان مواقعهم إثنان في منزل أم العيد وإثنان في منزل
السلالة وثلاثة في منزل أهل الزبير.

- هل أوصيت الذين في منزل أم العيد أن يستخدموا
النافذة؟

- نعم. لن يستخدموا سواها والباب محكم الإغلاق.
إنهم ينفذون تعليماتك حرفاً بحرف ولن يتحركوا إلا إذا
تأكدوا من أن تلك السيارات القادمة ستفرغ حمولتها هناك.

- هذا جيد تستطيع الآن أن تنام فقد أبليت البارحة
بلاء حسناً.

وحدهم الأطفال هم الذين يستطيعون هذا...أما أنت
يا صمبه فلا تستطيع، ربما تسقط لو أنك قفزت من فوق

أحد الحيطان... لا يهم...إذا اضطروني إلى القفز من فوقها
فلن أتردد. سيكون ذلك مناسبة لأستعيد ذكرياتي مع
الصخور وأنا أهبط من قمة الكدية. لكن أرضك يا أم
العيد رملية ناعمة تغوص الأقدام فيها. وقد يئست أمي قديما
من أن تستلني منها رغم أنها غسلت رأسي بذلك البول
الآدمي المقزز لتبطل عني سحر أهل القبلة كما زعمت.
وكنت أعرف أن ذلك سحرك أنت وشارعك العنيد المغالب
للمال كأنه نهر مندفع، لقد أخذت على عادة أن لا يفوتني
أن أصيب من كتف مشوية وأشرب الشاي المنعنع ضحوة
بالنزل ريثما يجتمع لي بعض المسافرين لأحملهم إلى
انواكشوط، وإن كنت أعرف أنك سترفضين في أحيان كثيرة
أن تأخذي مني مقابلا لذلك، لكنني سأتعلم بوعد منك أن
ستأخذي المقابل في المرة القادمة وربما ترفضين أيضا حين
أكرر ذلك وترفضين وترفضين، لا يهم كم مرة ستفعلينها،
المهم أن أمي يئست من إبطال السحر وها أنا هنا بجوار رقية
والأولاد أطفئ حر الصيف بلقمة عصيدة باردة ميدومة بلبن
حليب. ولن أغيط رقية هذه المرة بطلب الكسكس من
نزلك. أحسن ما في الزنجية أنها لا تعرف الغيرة ولا تراقب
تصرفاتي. لكن رقية قبلت الزنجية وحن جنونها بعد أن مات
إبراهيم وأصبحت أنت أرملة. لم أكن أتوقع أن يموت ولا

تمنيت له ذلك. لقد كان رجلاً يستحقك وتستحقينه. أعرف أنني خذلتك بعد موته. لكن رقية أم أولادي، وعيسى مازال يحبو على الأرض ولن يقبل بأكثر من تلك الأيام التي كنت أبتعد فيها عنه حين أنقل المسافرين إلى انواكشوط أو روصو. من سيحمل له الموز والتفاح؟ ومن سيجلسه في حجره لتأتي سعاد فتنازه ذلك المقام؟ لا أريد لرقية المسكينة أن تصاب بمس. كان علي أن أعمل المستحيل من أجلك. ولو لم تكوني أصلاً من نصيب إبراهيم لكنت من نصيبي أنا لكنه سبقني. لست غاضباً عليه، ولولا النقود التي حمل هو إلي يوم أن تحطمت سيارتي لذهب مني كل شيء، ولعاد ذلك الشاب القادم من أعالي آدرار مشقق الدراعة لا يحمل أجرة السيارة التي ستقله إلى انواكشوط وليس أمامه سوى مغافلة السائق والاختفاء في زحام المحطة. تلك هي المرة الوحيدة التي اضطر فيها إلى الاحتيال، و لكنه نذر بعد أن ملك سيارة نقل أن يعفو عن كل شاب لا يجد أجرة الوصول إلى المدينة، أعرف أنك أنت التي دبرت النقود ودفعتها إلى إبراهيم ليعطيني إياها لذلك كنت صادقاً في أمنيتي :

- ما أجمل لو كان بيننا رضاع يا أم العيد.

- لا ينقصنا سوى هذا فأنت بمنزلة الأخ لي.

... كانت تلك أمنية وقد أخبرتني إحدى العجائز بأن
هناك شيئاً اسمه رضاع الكبير يستطيع أن يجعلني محرماً لك
ولكني لم أشأ أن أفعله. سأصاب بالغثيان والقيء إن أنا
شربت لبناً بشرياً في هذه السن. لقد كان من قضاء الله أن
لا يكون لي ولا لك إخوة لكي يشعر كل منا بأن الآخر
أخوه. آه ما أحسنه من شعور! الزنجية وحدها هي التي
كانت تصدق ذلك فكانت تبالغ في إكرامك حين تذهبين
إلى روصو... لو أنهم اضطروني إلى القفز فسأقفز من
الحيطان كما كنت أقفز من فوق الصخرات. ولن أدع
خديجة تبني في أرضك، وسيهاجم الفتيان الذين وضعتهم
هناك تلك السيارات القادمة بالإسمنت والحارو الحديد.
وستعودين ونوزع الشواء بالنزل كما وزعناه يوم فوزي
بمنصب نقيب السائقين في روصو. وهذه المرة سأخفق قائد
الدرك كما خنقت علياً حين صعبت عليه الهزيمة فطفق
يتهمني وإياك، لكن إبراهيم كان سعيداً وكان هو الآخر
يحتفل معنا بذلك النصر. مازال العرق يتصبب مني وأرى
قطرات الماء التي نفثت فيها ابنة خالتي تعويذتها من شر
حاسد إذا حسد أراها تتحدر على جيبني كأنني سبقت لتوي
أترابي الصبية إلى قمة الصخرة. ولا شيء يعوض العرق
المتصبب سوى شربة ماء باردة وقد تكفلت بها ابنة خالتي
ثم عرفت حين لقيتك أن الشاي يرخي الأعصاب ويزيل

التعب. ولم يكن يسمح لنا نحن الصبية بشربه أو على
الأصح لم يكن بالكثرة التي تسمح لنا بذلك لكننا كنا
نفرح بأن نأكل ثقله بعد أن تنتهي حاجة الكبار منه.
تراخت أعصابي ومالت للراحة في كنف هذه الرمال وقد
نسيت رقية أنك أنت التي عرفتني عليها ثم نصحتني
بالزواج منها، ولم يكن أبي رحمه الله يتخيل أنه سيذهب
يوما للعيش في الجنوب لكنه قبل ذلك بعدما توفيت
والدتي، وحين أردت نقله ليدفن في أوجفت حدثني أنت
أنه كان يتمنى أمامك أن يدفن مع الشيخ أبوشامة في مدفنه.
ورأيت أن ذلك سيكون أحسن لي وللأولاد لقرب زيارته.
من يدري ربما نكون سلالة أب واحد تفرق أبنائها بين
الجنوب والشمال وبحس الدم تجمعنا اليوم هنا، لك أن
تستريح ولا تقلقي ففي هذا الصيف ستطلى بيوت أهل
القرية بالإسمنت لتعزيزها في وجه الأمطار التي كثيرا ما
تتلف طبقات الطين. لن يتزعزع البناء وستعود الشاحنات
إلى خديجة خاوية خائبة وسيرقص الأطفال في الطرقات على
إيقاع ذلك المطر الجميل، أعرف أنهم سيسجنوني كما
سجنوا زملائي لكن الفتیان لن يبرحوا رصدا لخديجة
ورسلها، فليطل الحاكم إجازته وليعث قائد الدرك في قريتنا
فسادا كما يشاء لكن أرضك ستبقى وستعودين إليها حتى
ولو ماتت السالكة.

- أبي، ألم يصلك الخبر؟

- وما هو يا بني؟

- لقد أحييت أم العيد إلى محكمة انواكشوط.

- هل أنت متأكدة مما تقولين؟

- سمعت ذلك في المحطة. لقد بدأ الناس يتواردون

عليها يريدون الذهاب إلى انواكشوط للقاء أم العيد.

التقط صمبه دراعة الخروج ونزع البيجامة وألقى
عمامته على رأسه ثم خرج إلى المحطة. كان الدرك قد رفعوا
الحظر منذ الصباح وتراجعت مجموعتهم إلى محيط القسم مما
سمح بالحركة داخل القرية وتنفس الناس الصعداء بعد أن
باتوا ليلتهم تلك في خوف بين جدران لم يتعودوا على
القرار فيها إلا عندما يأوون إلى مخادعهم. واجتمع في المحطة
ناس يتسقطون أخبار أم العيد. ومنهم من كان راغبا في
الذهاب إلى نواكشوط لعله يلقي أم العيد بعد أن كان
يمنعهم درك القرية من رؤيتها. وقد تطوع أحد السائقين
لحمل من يرغب في الذهاب إلى انواكشوط وأقبل صمبه
يتثبت من الأخبار حتى إذا استأنس صحة الخبر ركب سيارته
وصحبه ناس من أهل القرية واتجه إلى نواكشوط. ولم ينس

قبل ذلك أن يوكل إلى أحد أصدقائه مهمة الإشراف على
الفتيان الذين يحرسون أرض أم العيد. وكان الدرك قد
وضعوا اثنين من رجالهم في المحطة قريبا من نزل أم العيد
لذلك كان لزاما على صمبه أن يستعمل السرية التامة في
الإعداد للكمين الذي نصبه لتلك الشاحنات التي أشيع أن
خديجة أرسلتها من انواكشوط تحمل الإسمنت والحار والحديد
لبناء منزل في تلك القطعة المتنازع عليها.

انطلق صمبة من المحطة متجها إلى انواكشوط وعند
مخرج القرية أوقف درك الخفارة سيارته وأمره بالعودة
وصحبه أحد رجال الدرك على دراجته النارية إلى القسم،
وكذلك أعيدت السيارة الأولى بجميع ركابها، وألحق صمبه
بالسجناء وتم تسريح الرجال والنساء من ركاب السيارتين
وضرب الفتيان سيطا وأنذروا ثم أطلق سراحهم. وجاءت
الإشارة إلى الدرك بوجود كمين في منزل أم العيد وتم اقتحام
المنزل وأخذ من فيه من الفتيان إلى السجن وانتشر الدرك
على إثر ذلك في المحطة وأخذوا يضربون كل شاب يلقونه في
طريقهم ويروعون النساء والأطفال. وفزع الناس إلى منازلهم
يحتمون داخلها. ثم قرر أحد السائقين اعتراض الشاحنات
المزعومة وخرج بسيارته مسرعا لكن الدرك تعقبوه

بدراجاتهم وأوقفوه غير بعيد وضربوه على أعين الناس ثم
اقتادوه للقسم.

وعلى إثر ذلك سكنت الحركة في طرقات القرية ولم
يبق في المحطة غير المسافرين العابرين وثلة قليلة من باعة
الخبز والنعناع.

دشرة بلا بشر ولا جن (*)

أنت الآن مجرمة حقيقية ... هذا السجن ليس كغرفة القسم في الجديدة. هذا السجن سجن حقيقي ... سجن انواكشوط الكبير حيث المجرمات الحقيقيات ... لا تذكرني بعد اليوم تلك المرأة البريئة التي تسمى أم العيد فلم يعد لها من وجود ... العفن يسد أنفك، ورائحة الأبوال تفوح من كل مكان وهذه المرأة البدينة، يا لها من خبيثة،

- يا... ما اسمك ؟

- اسمي، اسمي الشيطانة!

- يا شيطانة... من أين تحصلين على السيجارة؟

- أرأيت أنك لا تريدين السلام إذ تنادينني بالشيطانة؟ لكنني سأسألك هذه المرة. وأما السيجارة فلا شك أن لديك خبرة طويلة في العمل أنت وابتكتك وتعرفين كيف نستطيع نحن النساء الحصول على ما نريده.

(*) الدشرة : تعني باللهجة الحسانية ما في معنى الحاضرة قرية كان أو مدينة

الشرط الوحيد لذلك هو أن نكون مستعدين لبذل كل شيء.

اضغطي على أسنانك... لا تتركي الغضب يستبد بك
تصرفي كالعاقلة ... آه هذه الملعونة تستفزك والأخريات
يشجعنها بضحكهن، تحملي، أم العيد أنت أكبر من هذا لا
تساوي نفسك بهؤلاء الفاجرات. مازال أمامك وقت هنا، لا
تدعيهم يكونون انطبعا عنك بأنك مهووسة بالشجار...
خديجة وبناتها أولى بهذه الرائحة وذلك الدخان، تتنشق
حتى تشرق، لكن الحاكم سلمها الرخصة والعالية كانت
طويلة اللسان، ما ذا لو كنت تركت لهم ذلك الجزء؟ فمن
سيحمي الأرض وأنت هنا؟ سيموت النزل وربما ماتت
العالية... آه يا إبراهيم لو رأيت حليلة ذاهلة ذابلة في هذه
الغرفة النتنة... ما لهذه الملعونة تنفخ الدخان في وجهي
وتضحك؟ يا إلهي يكاد صبري ينفد وإلى متى سأتحمل هذه
الإهانة؟

- سمعت أن لديك نزلا ودارا في الجديدة، وأن العشاق
يصطفون أمام بيتك. أنت محظوظة، أنا لا أجد من مأوى
سوى الساعة التي أقضيها في استضافة صديق.

أصابك أم العيد غشاوة ولم تشعر إلا وهي تعمل
يديها في رقبة تلك المرأة وبعض النساء يحاولن عبثا فك

يديها منها وجاءت حليلة تتضرع إلى أمها أن لا تقتل تلك المرأة:

- أمه، لا تقتليها... كفانا عذابا ما نحن فيه.

... ما هذا الصوت الذي يستجديك... لعلها ابتك
حليلة... آه بني، لا تجزعي، هذه خديجة، دعيني أخلص منها
نهائيا كي استريح وأريحك ... سينتهي أمرها هي وبناتها. أوه
بني لقد نسيت ربما تكون تلك العالمة ابنة خديجة، على
كل حال هي عدو مستفز علي أن أخلص منه. دعي النساء
يحاولن تمليص يدي ولن يستطعن قبل أن تسقط تلك
الفجرة. أنا أم العيد قاهرة الشياطين بهذه القبضة قتلت
ابن ملك الجن وحين لم يسعهم النيل مني ترصدوا حتى
رزقت بسليمان وحتى كبر فخطفوه مني. لكني الآن أمسك
بجناق إحدى ملكاتهم وستموت بين يدي. هذا تأرك يا ولدي،
خديجة ليست سوى جنية اقتحمت علي أرضي ونائب
الوالي كبير من كبرائهم، وليس قائد الدرك سوى أحد
تابعيه. ولكن الشيخ أبوشامة حزنني وحرزك منهم وأخبرني
بأنني حورية من حور الجنة وأن لا سبيل لهم علي... لا تقلقي
بني سينتهي أمر خديجة وبناتها وسنخرج في ليلة مقمرة من
هنا حين يقبل أبوك وأخوك ويدليان لنا حبالا نتعلق بها

ونبحر في الهواء بعيدا، سنبني الجديدة من جديد وفي مكان لم
تطأه أقدام الجن، ولا البشر وهذه المرة لن أستضيف فيها
أحدا سأطرد كل من يأوون إلي، لن يدخلها علينا أحد... لن
أأوى العملة ولا الإمام ولا حتى عبد السلام الذي أرضعته
ثديي ... وإذا تحطمت سيارتك يا صمبة من جديد فلن أدفع
لك شيئا. سيكون ذلك مؤلما لي أيها العزيز ... كما سيؤلمني
أن أرد عثمان الذي رعيته في تجارته وهو صبي ... لكن عذري
أنني لم أعد أم العيد التي تعرفونها، لقد أصبحت حورية
وسأبني مدينتي بعيدا عنكم وعن جنكم، ولا حاجة لي بعد
اليوم إلى البشر ... بنيتي، لن تجدي بعد اليوم أثرا للخديجة ولا
لبنتاتها... يا ما أسعدني، إنها تذوب في يدي وتذوي! فلتسقط
الكلبة. لقد أنهى أمرها.

تحامت النساء حتى خلصن المرأة من يدي أم العيد.
وكانت مغمى عليها. وأقبل الحراس على هرج النساء وقاموا
على المرأة حتى استعادت وعيها. وأخذت أم العيد وابنتها
إلى مكتب ضابط المداومة للتحقيق معهما. وقد ظلت أم
العيد صامتة منذ أن هجمت على المرأة حتى خاطبها
الضابط قائلا:

- أنت مجرمة خطيرة مهووسة بالقتل والبطش
بغريمتك ولذلك فسأحبسك في زنزانة بمفردك.

كان الدم يغلي في رأس أم العيد، وكانت متحفزة بسبب ما جرى. وقد حاولت عبثاً أن تمسك نفسها وهي تصغي إلى اتهام الضابط وتهديده لها، ولم تستطع ذلك فانفجرت بالسباب والدموع:

- بل أنت وقائد الدرك والحاكم ونائب الوالي أنتم هم المجرمون الحقيقيون. أنتم تريدون سلب أرضي وترمونني في السجن مع هؤلاء العاهرات، وكأنني مجرمة أو عاهرة. ياويلي منكم، ماذا فعلت لكم حتى تفعلون بي كل هذا؟ أنا لم أسئ إلى أي منكم يوماً ولم أظلم أحداً ولم أدخل بيتي أجنبياً. أنا امرأة طاهرة نقية. فلماذا أفسدت حياتي وضيعتموني أنا وابنتي؟ لأجل عيون امرأة فاجرة تسلبون أرضي وتقضون على نزلي وتميتون أحلام هذه الفتاة البريئة في حياة كريمة جاهدت كل عمري من أجل أن أضمنها لها؟ ألاني امرأة وحيلة لا مدافع عني؟ يا إلهي أنت ترى وتسمع فانتقم لي منهم!

كانت حليلة تبكي وتتوسل إلى أمها أن تسكت وتضع يدها على فمها حتى لا تستمر ثورتها وتقول لها:

- أمي اهدي. هذا الضابط لا ذنب له فيما أصابنا وأنت مريضة وهذا الغضب قد يعيد إليك الضغط.

- الأحسن أن يعاودني الضغط فأموت مرة واحدة وأستريح من هذه الحياة الكريهة.

- أطل الله عمرك أُمي. أريحي نفسك واصمتي.

- لن أستريح قبل أن أعرض من كبد أحد هؤلاء المجرمين.

كانت بعض النساء الحارسات يحطن بأُم العيد. ورغم جزع حليلة فقد أقبلت على أُمها تهدئها وتسكتها، وساعدتها الحارسات على ذلك إذ أخذن يهدئن أُم العيد حتى سكنت ثورتها وبقيت تجهش، وأمر الضابط أن يؤتى لها بفراش بسط في مكتبه، واضجعت عليه وجهاشها مستمر، وشيئا فشيئا هدأت ثم نامت على حالها تلك. وخرجت النساء وانتقل الضابط إلى مكتب موال، كان الوقت زوالا وقد مر على أُم العيد في ذلك السجن أول ذلك اليوم بعد أن وصلته هي وابنتها سحيرا.

الخبز وأوتاد الخباء

... يا سيادة الحاكم، يا صديقي لن أقبل اعتذارك لأن
رمل الخباء ما زال يذكر ذلك الصبي المستند إلى أحد أعمدته
ينظر في دهشة إلى ذلك الوشم الغائر الأسود المخترق جوف
الرمل مد البصر وإلى تلك الصناديق المتحركة فوقه. لقد
ظفر بصيد ولن يتيه عليه بعد اليوم أي صبي بحكايات
الشارع الأسود والسيارات. وسيكون هو لديه ما يقصه
ويتباهى به. وسيحدثهم عن أولئك السائقين العجبيين وهم
يوقفون سياراتهم، ويسرعون إلى تلك المرأة تحت الخباء
لتناولهم الشراب والشاي ثم تنادي الرجل المتسكع بين
ركاب السيارات:

- يا صبار، هات خبزة.

ويسرع الرجل إليها ليناولها الخبز، وتدس في يده قطعة
حديد هي نفس القطع التي كان يرى والده يعقد عليها
طرف لثامه ... يقال إنه يستطيع أن يشتري بها ما يريد.
وقايضه أبوه بها تيسا... ثم باعه بعد ذلك بأشهر... شطرت

تلك المرأة الحُبزة إلى نصفين وأدخلت فيها مادة كالزبدة حين تستخلص من اللبن...إنهما يأكلانه، لقد كان يظن أنه صلب ولكن لا بد أنه لذيذ. سينتظر حتى يذهب الرجال لعلها تدفع إليه شيئاً من فتاته، فقد حرّمته امرأة. أبيه البارحة العشاء وطرّده إلى زريبة المعز. ورغم الجوع لم تطاوعه نفسه أن يرضع كالجديان:

- تعال هنا. ما اسمك؟

- اسمي عثمان.

- من أين قدمت؟

- قدمت من احسي كافيّه

- أو تسكنون هناك؟

- لقد نزلناه من ثلاثة أيام .

- ولماذا جئت إلى هنا؟

...لا تجب، لن تستطيع أن تقول لها إنك هارب من زوجة أبيك التي ستضربك لأن العنزة العرجاء نطحتها إحدى عنزات الجيران فهاضت جبرها، لكن لا بأس من

مجاتها بالحديث مكافأة لتلك الشربة الحلوة وهذا الخبز
اللذيذ في فمك:

- أريد أن أتعرف على الشارع والسيارات،

- ألم تر هذه الأشياء من قبل؟

- قد رأيت السيارة مرة من بعيد. ولكني لم أر الشارع،
هل ينبت في الأرض؟

... ستسخر منك لكن ها أنت تساعدنا ولن ينطفئ
النهار قبل أن تكسب عطفها.

- هيا يا عثمان عد إلى أهلك قبل حلول الظلام.

... آه لقد داهمك الليل ولن تستطيع العودة إلى تلك
المرأة المريضة.

- ألا تريد أن تذهب؟ ها هو عبد الله يغلق حانوته،
هيا أنت ولد صغير ولا تستطيع الذهاب وحدك في الليل.
ألا تخشى الذئاب والأفاعي؟

... لن أعذرك يا سيادة الحاكم وربما لا تزال بعض أوتاد
الخباء هناك شاهلة على رجفة صبي حائر وقد جن عليه الليل
فلم يجرؤ على العودة إلى منزل والده خشية أن تنكل به تلك

المرأة القاسية في غياب أبيه. هناك فوق تلك الحصيات ينام ذلك الصبي وقد ألقت إليه رداء عتيقا يقيه شدة البرد ولن يقطع نومه العميق سوى سعال تلك العجوز المسكينة التي لن يخطئه كوب الحليب وقطعة الخبز الساخنة حين يصحو في الصباح. ولم يكن ليدرك أن ذلك سيكون تيمة الرباط بينه وبين ذلك الخباء. وتلك العجينة العجيبة التي سيظل لاحقا يبكر كل صباح ليحمل حزمها كما كان يحملها الصبار. ولن يهدأ الوالد القادم لأخذه بعد ثلاثة أيام إلا حين يرى أم العيد تناول ولده تلك الخبزات وعلب البسكويت وتدس في جيبه قطعاً نقدية ثم تسر إليه إذا ضربتك زوجة أبيك ثانياً. فقل لها إن لك خالة قوية قادرة على أن تنتقم لك.

ثم تنتقل أم العيد إلى الوالد فتقول له:

- ابنك نابه ولو بقي معي فقد يجلب لكم خيراً كثيراً.

- شكراً لك لكني بحاجة إليه وأخشى عليه من السيارات.

- لا تخف عليه فسيكون في رعايتي.

- الآن سأذهب به ولعلي أفكر في هذا الاقتراح لاحقاً.

لا يبدو أن أبه غاضب منه لذلك فإنه غدا سترك أخاه الصغير محمدا يرعى العنزات ثم يسرع إلى القرية. آه كم هو جائع هذه الليلة لقد سلبته تلك المرأة القاسية كل البسكويت. وأخذت نقوده، لكن لا بأس في المرات القادمة سيحتال لذلك. لن يجلب إليها إلا الفتات وسيأكل هو حتى يشبع وسيدس البقية لأخيه. وسيردم محصوله من النقود عند جذع شجرة. وحين ترصده الخبيثة وتسلبه ذلك مرة واحدة وتضربه، فلن يجد سوى الفرع إلى الخباء باكيا. يهدئه حضن العجوز وقطرة الدمع تسيل من عيني أم العيد وهي تمضغ الأسى وقد عزمت أن تستبقه معها وطالت غيبة الوالد... واشتاق الصبي إليه وإلى إخوته الصغار وجعل يحوم حول البيت ويسترق غفلة تلك المرأة حين تخرج من المنزل فيجلب لهم الحلوى والخبز ويترك عندهم الرز وما تيسر من اللحم مما أعطته إياه أم العيد، زهيد كل ذلك لكنه جهد صبي يقطع الليل بالدموع لذكرى أمه وحرمانه من أبيه وإخوته... لكنه لم يقبل أن يرجع إلى البيت وقد جاءت تلك الشقية لتسترده بعد أن طال غياب الوالد ولم يرجع هو بمحض إرادته إلى المنزل، فحضن العجوز دافئ في ليالي الشتاء وأم العيد قوية وقد قالت لزوجة أبيه:

- أهذه أنت أيتها الجبانة؟ لقد كنت أنتظر أن ألقاك
بفارغ الصبر. أترين هذه السكين في يدي؟ لو علمت من
كاذب أو صادق بعد اليوم أنك مددت يدك إلى هذا الصبي
اليتيم فسأذبحك بها.

- يا ويلي أم عدوي، هل جنت يا أم العيد، ماذا بينك
وبين هذه المرأة حتى تشهري سكينك في وجهها؟!

- أمي هذه هي المرأة التي تعذب عثمان صباحا ومساء،
هذه زوجة أبيه.

- أف. لا تمسيها بسوء وخلي بينها وبين الله فسينتقم
له منها.

- لن أخلي بينها وبينه، وما أدراك أنني أنا التي بعثني
الله لأنتقم له منها؟

انتهزت الملعونة انشغال أم العيد بحديث أمها
وانسلت هاربة ولم ترجع.

... لن أعذرك يا صديقي. يا سيادة الحاكم... وتلك
الحكاية محفورة على حبات الرمل التي أهديت لخديجة؟ ولا
تمن علي أن بادرت بإخراجي من السجن أنا وزملائي
وبقية ضحايا غباء قائد دركك الصلف. وأنتك سحبت الجنود

من القرية. لن أعذرک ... ومع ذلك فلن أمن عليك بما
سقيتك إياه وأطعمتك من رسل وشواء في الليالي المقمرة.
هناك في منطقة العرية بعيدا عن ضجيج الشارع والناس.
وليس ذلك سوى عصارة تلك الأرض التي استهنت بها
فسلمتها لفاجرة. لكنها أرض لم تروض للفجور وقد رمتهم
عن ظهرها لأول وهلة. لن تنتزع الأوتاد من جوف الأرض
وقد أنبتت أشجارا ستظل أم العيد وابنتها يتفیانها رغم
أنف خديجة والسالكة... ولكن قائد درك كان حقيرا... ها
نحن قادمون وستخرجين. لن تطأ رملك الجميل سوى
سيارات تحمل لك أنت الإسمت والحر ولن تقبل الأوتاد
بناء غير بنائك، مازال الرمل يعرف قافة أثرك ولن يكون من
كفاء سوى كفائك. تفوح منه رائحة البخور في ليلة شاتية
تهدي صبية الشارع حين تختلط برائحة الكسكس الجاهز:

- أحمد كم حصلت الليلة؟

- لقد حصلت مائة فرنك، وأنت؟

- أنا، أف لقد بقي لدي الكثير من الخبز، لم أكن
محظوظا هذه الليلة.

- لا بأس عليك ستعوضها غدا، إنه يوم الخميس،
انس الأمر، أترى أم العيد تحتفظ لك بأكلة؟

- لم يحدث أن نسيتني، من يوم ولا ليل منذ أن عرفت
أني يتيم.

- وددت لو أنني أنا أيضا يتيم حتى أفوز بذلك
الطعام الشهي.

- ها..ها.. يا لك من أحق!

... آه تذكرت الآن سأعذرك يا سيادة الحاكم لأنك لم
تعرف ذلك الطعام ولم تتنسم رائحة الكسكس المنقوع
بلحم الضأن الناضج وأنت تسير على الرصيف تلزق يدك
على بطنك المحروق من الخواء، كم لقمة كنت سترميها في
بطنك الكبير لو أنك عاينت ذلك الكسكس على تلك
الحال. أغمض عينيك وسط الظلمة ودع يدك تهيل من
ذلك الصحن الكبير وإذا بليت بصديق جائع يصر على
صحبتك فلا تضيع كثيرا من الوقت في المضغ، ستكبر
بسرعة، وستهابك زوجة أبيك، وستكبر معك الرائحة
الزكية، وتمتد في الأفق امتداد تجارتك. والأوتاد تغوص في
الأرض... لكنك لم تكن هنالك يا سيادة الحاكم لذلك
أخذت خديجة الأرض... ومع ذلك فنحن قادمون، يا أم العيد
ولن يضيع شبر واحد من أرضك:

- أوه ... كم بقي من الطريق يا صمبه؟

- أربعون كيلو...

- هذا كثير... لعلك هرمت، فلم تعد تقوى على
السياقة.

- أنا! لم أهرم ولئن هرمت فلن أعجز عن قيادة
سيارة، خاصة إذا كان ذلك على هذا الطريق، إنني أحفظه
شبرا... شبرا وأستطيع أن أقطعه بطوله وأنا مغمض
العينين... لكن الإمام ينام على كتفي... إنه يعيقني... ولا أود
أن أزعجه.

- لا أظنه نام ليلة أمس... لقد كانت ليلة ليلاء...
الغرفة ضيقة خربة الجدران لا تأمن فيها أن تلدغك أفعى أو
عقرب. أما أنا فلم أكرث وقد نمت قبل صلاة العشاء وكنت
أنتبه فأجدهم جميعا مستيقظين، يتحدثون في ظلام الغرفة.

- صدقني والله لا أعرف كيف مرت علي تلك الليلة
ولا أول صباح يوم أمس قبل أن تخرجوا... كنا نسمع كل
شيء ولا نعرف ماذا نصلق وكنت أنتظر أن يمسكوا بي في
أية لحظة... اضطررت لدس الفتیان في منزل أم العيد
لحراسته... كنا في شبه حرب حقيقية نستنفر لأي شيء.

- لقد أحسست ذلك عندما تحدثت مع الحاكم مساء أمس بعد خروجنا من السجن. فقد قال لي إنه حين سمع بالخبر في ألاك ظن أن حرباً قامت وفي بتلميت أيضاً تحدث إلى قائد الدرك بالراديو وحدثه عن الوضع كأنما يتحدث عن إجراءات حرب.

- الحمد لله أن ذلك انفرج الآن...

- الحمد لله...

- أظن أننا الآن سنبدأ بالسجن، أليس كذلك؟

- بلى، سنزور أم العيد في السجن ومن ثم سنقرر مع العملة وعبد السلام ماهي الخطوات التي سنقوم بها وربما نذهب إلى المحكمة فلدي محام صديق قد يسرع لي إجراءات الإخلاء بكفالة.

- أتظن أنهم سيخلونها بكفالة؟

- أنا واثق من ذلك. وسأدفعها حتى ولو كانت عشرة ملايين أوقية... لن نرجع إلى الجديدة من دون أم العيد...
- أرجو ذلك.

جذور في الأعلام

حين اجتاز المختار نقطة الدرك إلى داخل القرية خفض
سرعة سيارته وجعل يخرج رأسه من نافلة الباب ويقول لكل
من صادفه:

- لقد خرجت أم العيد من السجن.

وأخذ الكثيرون منهم يسرعون خلفه ليتثبتوا من
الخبر وحين وصل إلى المحطة توقف وتحلق الناس حوله
يتساءلون عن تفاصيل الخبر. ولم يشأ أن يبطئ بالخبر عن أمه
السلالة فأسرع إلى منزل أهله وفتح الباب وهو يناديها:

- أمي...أمي... أين أنت؟

- أنا هنا... أهذا أنت يا بني. ماذا وراءك؟

- لقد خرجت أم العيد من السجن.

- أمتأكد أنت مما تقوله؟

- نعم أمي، أنا متأكد لقد خرجت وأنزلناها في منزل
لعثمان. وستأتي هذا المساء.

- بشرك الله بالخير ... هذا يوم عظيم ... أين العزة
لتحضر لي الطبل لا بد أن أضربه بين يدي أم العيد
حينما تصل.

- كيف حال العزة الآن؟

- تبدو بخير هذه الأيام... لكن ماذا عن العالية، لقد
كنا قلقين على أم العيد حين سمعنا أن تلك الفتاة في غيبوبة.

- لم تتضح حالتها وستجرى لها عملية في عظام
القفص الصدري. نسأل الله أن تنفك هذه الأزمة بسرعة.

- ماذا تعني ألم تقل لي إن أم العيد خرجت من
السجن؟

- بلى، لقد خرجت بكفالة، لكنها لم تحاكم بعد
وستنتظر حتى تشفى العالية ثم تستدعى للمحاكمة.

- ستشفى بإذن الله تلك الفتاة وستخرج أم العيد
سالة من هذه الورطة.

ارتجت القرية. مساء ذلك اليوم لسماع نبأ إطلاق
سراح أم العيد وخرج الناس عن بكرة أبيهم عصرا
لاستقبال أم العيد وأصرت السالة وصديقاتها على إحضار
طبل لضربه بين يدي أم العيد. وتحرك الجمع المستقبل إلى

خارج القرية على طريق انواكشوط وحين أشرفت السيارة على القرية بهرت أم العيد بذلك الجمع وسألت عبد السلام قائلة:

- هل الرئيس قادم إلى قريتنا اليوم؟
 - لا ... لم أسمع بذلك.
 - إذن ما الذي أخرج أهل القرية جميعاً؟
 - أظن أنهم خرجوا لاستقبالك أنت وحليمة.
 - لاستقبالنا! ... أ تسخر مني يا عبد السلام.
 - معاذ الله أنا لست عاقا. انظري لقد بدأوا يسدون الطريق حين رأوني ألوح لهم، سوف يتسابقون إليك ليسلموا عليك.
- خفف صمبه السرعة عند أول الحشد وتزاحم الناس حول السيارة يسلمون على أم العيد، وظلت السيارة تتحرك ببطء حتى وصلت إلى حيث السلالة وطبلها وهناك أوقف صمبه السيارة وفتحت أم العيد الباب لتحتضن صديقتهما السلالة وبكت المرأتان بحرارة ولم تنفكا من عناقهما الطويل حتى نزل عبد السلام وأمسك بأم العيد وهو يقول:
- علينا أن نصل إلى المنزل لتستريحى فأنت متعبة.

شقت السيارة طريقها يشيعها الناس حتى توقفت أمام
النزل وهناك تجمع حشد عظيم. وحين دخلت أم العيد إلى
منزلها حفها الناس هي وابنتها حليلة من كل جانب
وأجهشت بنشيج متواصل سيطر عليها لدقائق. بكت كما لم
تبك من قبل ولم تعرف لذلك البكاء سبباً... وسقط في يد
الحاضرين حتى ظنوا أنها متألّة وانزاح الناس عنها ليتركوا
الهواء يصل إليها... ثم إنها هدأت بعد ذلك وتمددت على
الفراش مغمضة العينين وفكرت:

أوه هذا كثير!...أم العيد هلا كفرت عن ذنبك حين
مسحت الجميع من ذاكرتك وفكرت في فردوس بعيد ليس
فيه سواك أنت وحليمة وإبراهيم وسليمان ... ولم يكن
إبراهيم ليوافقك على ذلك على الرغم من أنك حلمت
بلقائه هناك كيف وهذه الوجوه النيرة تتلقات متهللة وهذا
المهرجان لم يعقد إلا لك؟ ليس هذا حلماً وليخساً قائد
الدرك ونائب الوالي... لن يحف الزريق في عروق قرينتك
ورائحة المشوي الزكية لن تفارق أزقتها... مازال الشارع ثلثاً
من شايك المشعشع بالرغوة البيضاء وقد مد ظهره انحناء لك،
وذاكرة الرمل الذهبي لن تزال خصبة من حكايات النشأة
الأولى حين كانت الأرواح تعبث بالخباء في عتمة الشتاء
القارس وقد غادر الرفاق إلى أهليهم ليناموا وأنت تتحددين

الأقدام الغليظة لتقيمي دشرة البشر على أجساد مررة الجن
وأماك الخائفة تتوسل إليك كي تخليا لهم المكان لكن في
الأفق من حولك مهجا ستؤي إليك ليس لها غيرك
فانتظريها... أم العيد أنت هنا عميقة الجذور في أحلام قرينتك
الجميلة... لن تعودى لمثل ذلك التفكير وقد روعت العزة
المسكنية وعاودها مرضها عندما أخذوا السلالة ... وهل
يرضيك أن يسجن الإمام والعملة ثم لا تكثرين؟ أنت هنا
عميقة الجذور في أحلام قرينتك الجميلة ولن يفرح هؤلاء
الفتيان والفتيات أن تسقطيهم من ذاكرتك كما لن يسر
ذلك أولئك الرجال الطيبين وقد جاءوا تغمرهم الفرحة
بمخرجك... وماذا ستخط يد نائب الوالى أو الحاكم أو قائد
الدرك أو القاضي بعد اليوم ... لن يكون ذلك سوى أمر
سخيف لا قيمة له.

تمت.

محمد ولد محمد سالم

الشارقة: 12 - 8 - 2007

الفهرس

ديوان الليل	3
رخصة احتلال	11
الصولة الأخيرة	21
موت البقرة الأخيرة	31
طعم الثدي	45
شهادة أبوة	49
حس الدم	65
دشرة بلا بشر ولا جن	73
الخبز وأوتاد الخباء	79
جدور في الأحلام	89

